د. شوقي شعث

قلعة سمعان العمودي



منشورات دار القلم العربي

حلب ١٩٩١

الطبعة الثانية
١٤١١ هـ - ١٩٩١ م

قلعة سمعان

قلعة سمعان

(ومواقع أخرى)

(دليل أثري تاريخي)

الدكتور
شوقي شعث

الطبعة الأولى : المديرية العامة للآثار والمتاحف ، دمشق ١٩٨٣
الطبعة الثانية : دار القلم العربي ، حلب ١٩٩٠

٢٠٠٠/١٩٩٠

الصور الملونة : عدسة المصور أنور عبد الغفور

مدخل

لايمكن أن تغطي الصفحات القليلة في هذه الدراسة كل شيء عن قلعة سمعان أو عن القديس سمعان العمودي وحياته الحافلة بالأحداث ، لقد كان القديس سمعان راهباً ثائراً بمقاييس عصره اختط لنفسه نهجاً في العبادة سار عليه فيما بعد الكثيرون من مريديه وأتباعه وقد كان ذلك ، كما يبدو ، بمثابة رفض لتقاليد العصر الذي عاش فيه وثورة إصلاحية . لقد كتب الكثير من الدراسات حول ذلك النهج فمن أراد الاستزادة فله أن يرجع إلى تلك الدراسات ، وهدفنا هنا فقط التعريف به وبالكنيسة والدير اللذين ارتبط اسمه بهما حيث أقيما تكريماً له وتكريساً لنهجه .

جاءت دراستنا هذه موجزة انسجاماً مع ما نريده من هذا الدليل إذ أن الغرض أن يكون مختصراً وليس دراسة معمقة لذلك جاء الحديث مختصراً عن أهمية المنطقة والمدن المهجورة وعمارتها وعن قلعة سمعان وعن بعض الخرائب التي يمكن زيارتها انطلاقاً من قلعة سمعان تتميماً للفائدة ورغبة في أن يطلع زائرنا الكريم على أكبر عدد ممكن من المواقع التاريخية التي تعزّز عراقة قطرنا العربي السوري الحضارية . لقد جعلنا قلعة سمعان ، بعد الوصول إليها ،

نقطة ينطلق منها الزائر إلى عين دارا وعفرين واعزاز وتل رفعت ثم حلب ، أو ينطلق إلى دارة عزه ودير ترمانين ودير تلعاده والدانا الشمالية وتل عقبرين وهنا يمكن للزائر إذا أراد العودة إلى حلب أن يتجه يساراً ليمر على الطريق الروماني ثم بلدة الأتارب فأورم فحلب ، أما إذا أراد أن يزور سرمدا وقلب لوزه فيتجه بعد الدانا يميناً ليتابع سيره إلى باب الهوا وبعد أن يعبر نقطة الحدود ثم قصر البنات بعدها يمكن أن يعود إلى سرمدا حيث المدفن ذو الأعمدة ، وبعد أن يترك سرمدا يجد البرج فرأس الحصن (باش مشلي) ثم بعد ذلك ينعطف يساراً ليتابع سيره عبر قرية قورقانيا ، صاعداً الجبل ، ليصل إلى كنيسة قلب لوزه وبعد زيارة قلب لوزه يمكن للزائر أن يتابع سيره لزيارة القلعة العربية الاسلامية في بلدة حارم .

إن الحديث عن المواقع الأثرية ، التي سنأتي على ذكرها ، يحتاج إلى صفحات طويلة . وعذرنا في الاختصار أننا نكتب دليلاً أثرياً تاريخياً للزائر الذي يرغب في معرفة معلومات مختصرة ، وعليه إذا رغب في الاستزادة ، أن يعود إلى المراجع المطولة ، وهنا يلعب دليلنا هذا دور الدافع أو المحرض للتعمق في دراسة تاريخ المنطقة .

أرجو أن أكون قد وفقت فيما انتدبت إليه نفسي والله من وراء القصد .

د . شوقي شعث

الأمين الرئيس لمتحف حلب الوطني

حلب ١٩٩٠

إضاءة تاريخية

لابد قبل الحديث عن قلعة سمعان وعن المواقع الأثرية حولها من أن نتحدث بشكل مقتضب عن تاريخ المنطقة التي تحيط بقلعة سمعان ، فلقد دلت التحريات الأثرية التي قامت مؤخراً في المنطقة على توطن الإنسان في عصور ما قبل التاريخ حيث تم مؤخراً اكتشاف عدد من الكهوف الأثرية التي تعود إلى عصور ما قبل التاريخ في الجبال الواقعة إلى الشمال والشمال الغربي من قلعة سمعان حيث تم العثور فيها على مجموعة من الكهوف من أهمها كهف الدودريّه أو (الحضيريه) حيث تقوم بعثة أثرية يابانية بالتنقيب فيها ، وقد عثرت على بقايا صوانية وعظمية تعود إلى إنسان ما قبل التاريخ ، خاصة ذلك الذي يعود إلى الدور النيادرنالي أو الأشولي ، وقد لاحظ المنقبون أن هذه المغارة قد أعيد استخدامها في العصر البيزنطي ، وربما استخدمت كمكان للتعبد في ذلك العصر . عموماً لم تنته التنقيبات الأثرية بعد ، وقد تمدنا التنقيبات المستقبلية بمعلومات جديدة .

وغير بعيد عن هذه المواقع يوجد « تل عين دارا » الذي يقع على نهر عفرين ، وقد دلت الدراسات والتنقيبات الأثرية أن

الإنسان قد توطن فيه منذ الألف الثاني قبل الميلاد واستمر في الألف الأول حتى القرن السادس عشر الميلادي ، وقد أظهرت تلك التنقيبات عدداً من البقايا المعمارية أهمها المعبد الآرامي وعدداً من اللقى الأثرية كالفخار والنقود والدمى والأواني البرونزية ، وإلى الغرب من قلعة سمعان أيضاً وعلى نهر عفرين يوجد تل إسكان وعدد آخر من التلال ، وإلى الشرق والشمال الشرقي يوجد تل أعزار وتل رفعت كما دلت تحريات الرحالة والدارسين الأثريين على ازدهار المنطقة التي تحيط بقلعة سمعان في العصور الرومانية والبيزنطية والعربية الاسلامية وذلك بدلالة البقايا المعمارية الكثيرة والمنتشرة حولها والتي تعود إلى مساكن وفيلات وكنائس ومدافن وأبنية عامة أخرى وكذلك الكتابات والمعاصر وبقايا الأشجار وفي ذلك دلالة لا تقبل الجدل على أن هذه المنطقة كانت مزدهرة في مختلف العصور ، هذا إذا استثنينا بعض الفترات التي تراجعت فيها النشاطات الحضارية ، ومن الأهمية بمكان أن ننوه أيضاً بأهمية هذه المنطقة من الناحية الاستراتيجية فقد كانت تشكل تقريباً منطقة حدود بين بيزنطة والدول العربية وتحدثنا كتب التاريخ أن البيزنطيين تمكنوا من استعادة السيطرة على هذه المنطقة واستقروا في قلعة سمعان ورمموها وحولوها إلى قلعة عسكرية كي يتمكنوا من الدفاع عنها وبالتالي البقاء في هذه المنطقة أطول مدة ممكنة قاربت القرن من الزمان وظلت كالحربة في خاصرة الدولة

الحمدانية حتى تمكن الأمير الحمداني سعد الدولة ابن سيف الدولة من استعادتها كما سيمر معنا لاحقاً .

ولا يفوتنا أن نذكر سهل العمق الخصب الذي يجاور هذه المنطقة من الجانب الغربي والتي دلت التحريات الأثرية التي قام بها الأستاذ بريد وود Braidwood وآخرون على ازدهار حقيقي في منطقة العمق منذ عصور ما قبل التاريخ ، وإذا قلنا أن الحضارة تقوم حيث المياه والسهول الخصبة ، كما هو مألوف ، نجد أن هذه المنطقة التي نتحدث عنها تضم مصادر مياه كثيرة كما تضم ثلاثة سهول خصبة هي : سهول : حلب وعفرين والعمق ، وبذلك توفر للحضارة مقومات وجودها .

المدن البائدة (المدن المهجورة)

تنتشر خرائب هذه المدن والقرى بكثافة في المناطق الجبلية الكلسية في شمال سوريا خاصة في جبال سمعان ، باريشا ، الأعلى ، الزاوية وفي المناطق السهلية المجاورة وهي تعود إلى الفترة الممتدة بين القرن الأول والقرن السابع الميلادي ، وقد شهدت أعظم ازدهار لها في الفترة التي امتدت بين القرنين الرابع والسابع الميلادي. كان قسم من هذه الأماكن يتبع من الناحية الإدارية في تلك الفترة إلى مدينة أنطاكية في الشمال ، أما القسم الآخر فكان يتبع مدينة أفامية بالجنوب .

والسؤال هنا الذي يبرز إلى الذهن كيف نشأت هذه المدن وما هي الوظائف التي كانت تؤديها ؟ يختلف بعض الباحثين حول هذا الأمر فمنهم من يذكر أن معظم هذه الأماكن كانت عبارة عن منتجعات صيفية أو مزارع ريفية لأهالي أنطاكية أو لأهالي المدن الأخرى نظراً لطيب هوائها وجفافه في فصل الصيف ، وهناك من يرى أن هذه المدن والقرى إنما أقيمت لغرض سكن المزارعين السوريين الذين عمروا تلك المناطق وساعدوا على ازدهارها زراعياً وتجارياً ، لذلك أقاموا الأبنية الجميلة للسكن

والاجتماعات والعبادة ، وإن دل ذلك على شيء فإنّما يدل على الثراء المادي الذي شهده سكان تلك المناطق .

مهما يكن الأمر في سبب نشأتها والوظيفة التي كانت تؤديها فإننا نجد أنفسنا أمام حالة فريدة من العمران والنشاط الزراعي تستحق أن تدرس بعناية فائقة من جميع النواحي الاقتصادية والسياسية والثقافية وغيرها كما لابد أن ندرس ظاهرة هجرها وأسبابه ومما يميز هذه الخرائب الأثرية الكثيرة أنها لا تضم كنائس فقط تعود إلى الفترة الممتدة من القرن الرابع حتى القرن السابع بل تضم أيضاً وبكثرة منازل وبيوتاً وأمكنة للاجتماعات العامة وأسواقاً وحمامات ومدافن وغيرها . وكانت تعيش هذه المدن على إنتاج الزيت من الزيتون والنبيذ من أشجار الكرمة وتصديرهما إلى سائر أرجاء الامبراطورية البيزنطية آنذاك التي كانت تتبع لها سورية من الناحية السياسية هذا إلى جانب استيراد البضائع التي يحتاجها سكان سورية والاتجار بها .

ذكرنا أعلاه أن هناك خلافاً حول أسباب هجر تلك المدن والقرى لتصبح اليوم بلا حياة بشرية أو على الأقل بعضها ، فبعض الباحثين الغربيين يتجنى على العرب المسلمين بقولهم ، إن هذه النواحي كانت عامرة قبل مجيئهم أي مجيء العرب المسلمين وإنهم هم الذين أجبروا سكانها على تركها لتصبح مع الزمن خاوية على

عروشها ، في حين أن العرب حرصوا أشد الحرص أثناء الفتوح على العمران والابتعاد عن التدمير والتخريب على عكس ما كان يفعل غيرهم ومما يؤيد هذا القول ما قام به القائد العربي أبو عبيدة عامر بن الجراح حين منع الجند من أنطاكية بعد فتحها ، لقد منعهم من الدخول إليها خوفاً من أن يعبث الجند بممتلكات أهلها أو الاعتداء عليهم . وكانت أنطاكية يومها من أرقى البلاد السّورية . وشيء آخر يمكن أن يكون رداً على أولئك المتجنين هو أن الدراسات الحديثة التي قام بها نفر من الرحالة والباحثين الأجانب دلت على أن هذه المستوطنات إنما هجرت تدريجياً و لم تهجر دفعة واحدة ، وأن بعضها ظل مأهولاً حتى القرن العاشر أو بعد قرنين على أقل تقدير من ذهاب السلطة البيزنطية . والصحيح حول أسباب هجر هذه المدن أنها خربت ثم هجرت بسبب الوضع الاقتصادي الذي تغير بفعل الأحداث السّياسية التي حدثت على الساحة منذ مطلع القرن السابع الميلادي . **أول هذه الأحداث** الحرب الفارسية ـــ البيزنطية (٦٠٣ ـــ ٦٣٠ م) حيث كان الصراع كبيراً على امتلاك هذه المناطق الغنية بين الفرس الساسانيين وبين البيزنطيين كما أشرنا ، وقد تمكن الفرس في إحدى الغزوات من تدمير كثير من هذه المدن والقرى وقطع أشجارها واتلاف مزروعاتها وتركتها خراباً وكان لهذه الحرب آثار اقتصادية وآثار أمنية ، أما الآثار الاقتصادية فقد ألمحنا إليها ، ونضيف إلى

ذلك أن حركة التجارة العالمية قد توقفت إبان الاحتلال الفارسي مما أفقد هذه المناطق بعض ثرائها . أما الآثار الأمنية فقد أصبح سكان هذه المناطق أو على الأقل قسم منهم ، غير آمن على نفسه فعاد إلى المدن الكبيرة طلباً للاستقرار .

وثاني تلك الأحداث حرب التحرير العربية (الحرب العربية ـ البيزنطية) التي كانت نتيجتها استخلاص سورية من أيدي البيزنطيين وضمها إلى الامبراطورية العربية وقد حرص العرب على عودة الازدهار الاقتصادي التي كانت تتمتع به تلك المدن والقرى قبل الغزو الفارسي ، فشجعت الناس على العودة إلى مدنهم وقراهم بعد أن وفرت لهم وسائل العيش والأمن ، ومن أجل ذلك قامت السلطات العربية بتوقيع اتفاقية اقتصادية مع البيزنطيين من أجل بيع منتجات سكانها الزراعية والصناعية كالزيت والنبيذ والصوف مقابل دفع أثمانها بالدينار البيزنطي . إلا أن البيزنطيين في سبيل نقض تلك المعاهدة لجؤوا إلى سك دنانير نقشوا عليها عبارات تعرض بالرسول العربي ، كما تذكر بعض الروايات ، وتوقفوا عن استيراد أصناف البضائع المتفق عليها ، وكانت تلك بمثابة مقاطعة اقتصادية للدولة العربية الوليدة ، فتكدّست المنتوجات وتوقف تصديرها ، ومع الزمن توقف إنتاجها مما أجبر سكان بعض تلك المدن والقرى على التفتيش عن وسيلة عيش جديدة ، فتركوا

قراهم إلى المناطق المجاورة السّهلية لزراعة القمح والشعير والمحصولات الشتوية الأخرى في حين بقي البعض الآخر في قراهم عندما تمكنوا بطريقة أو بأخرى من تأمين حياتهم اليومية ، ومما يؤكد استمرار الحياة في بعض تلك المدن والقرى هو العثور على نقود أموية وعباسية وأيوبية ومملوكية وعثمانية إلى جانب بعض الكسر الفخارية الاسلامية التي تعود إلى تلك العصور .

ونجد في التاريخ العربي المعاصر حدثاً قد يكون مشابهاً لما حدث في القرن السابع الميلادي بين العرب والبيزنطيين ، هو ما حدث بعد استقلال الجزائر العربية حيث كانت هناك مساحات كبيرة مزروعة بالكرمة في الجزائر زرعها الفرنسيون وأقاموا فيها المصانع والمساكن لانتاج النبيذ وتصديره إلى فرنسا ، ولكن عندما استقلت الجزائر استمرت فرنسا في استيراد النّبيذ الجزائري المشهور ، ولكنها في الوقت نفسه عمدت إلى زراعة مساحات واسعة من الكرمة في سهول مرسيليا ، استعاضت فيما بعد بها عن منتوجات النبيذ الجزائري ، وعليه عمدت إلى إيقاف استيراده كوسيلة ضغط على الجزائريين مما اضطرهم في النهاية إلى اجتثاث تلك المساحات من الكرمة والتحول إلى زراعات أخرى ، ومن ثم كان على عدد كبير من الناس إما أن يتكيف مع الواقع الجديد أو أن يهاجر إلى مناطق أخرى .

العمارة السورية في المدن البائدة

إن الزائر لهذه المدن والقرى وكذا المطلع على ما وثقه الرحالون الغربيون حول هذه المنشآت المعمارية ليدهش حقاً من تطور فن العمارة في هذه المنطقة أي سوريا الشمالية ، ومن المهم أن نذكر هنا أن هذه العمارة تكاد تنفرد بها سوريا الشمالية ، لقد وصل المعمار السوري غاية نضجه في المرحلة التي شهدت بناء هذه المدن مستنداً إلى قاعدة فنية فكرية راسخة الجذور ، إذ لايعقل أن ما وصلت إليه العمارة السورية في القرنين الخامس والسادس جاء عفوياً ، وأكبر الظن أنه جاء نتيجة طبيعية للثراء المادي والثراء الفني المتوارثين في هذه المنطقة .

إنّ مخططات العمائر والتزيينات الموجودة في داخلها أو خارجها تدل على ذوق رفيع في فن الزخرفة ، ناهيك عن عمليات التنزيل والتكفيت والدهان التي كانت مهناً متممة للعمل المعماري الرفيع ، وقد يجد المتأمل في عمارة الكنيسة الكبرى في رهبانية القديس سمعان (قلعة سمعان) ما يؤكد ما ذهب إليه الباحث في هذا المجال ، وإنّ الحليات المعمارية جاءت معبّرة تعبيراً حياً خاصة تزيينات الأكانث والخرشوف التي جاءت في عدة أشكال منها الساكن ومنها المتحرك مع اتجاه الريح ، وهناك التزيينات التي تمثل الكرمة التي نجد فيها عناقيد العنب بشكل حي ، كما نجد الأشكال

الهندسية مثل المربعات والمستطيلات والمثمنات المفرده والمزدوجة والأزهار والصلبان والكتابات والأشكال الآدمية وأشكال الطيور والحيوانات وإن دل هذا على شيء فإنما يدل على تمكن المعماريين والفنيين السوريين من حرفتهم وبذلك سيطروا سيطرة كبيرة على تطويع الأشكال وفق رغباتهم ورغبات صاحب البناء ويظهر ذلك جلياً في تزيينات الأطناف والتيجان والواجهات والأقواس والعقود والمداخل والنّوافذ والأعمدة الحاملة أو الأعمدة التزيينية والأحواض والمدافن والتوابيت وقد جاء كل ذلك في تناسق بديع ، وباختصار يمكن القول إنه كانت هناك في شمال سوريا مدرسة فنيّة معمارية بكل أبعادها ومقوماتها ومن الضروري أن يطلع جيل المعماريين الشباب على منتجات تلك المدرسة لاغناء تصوراتهم المعمارية والفنية .

قلعة سمعان

الموقع

تقوم قلعة سِمْعان فوق نتوء صخري يحده من الجنوب والشمال والشرق أودية حيث تشكل خطوطاً دفاعية طبيعية ، يبلغ ارتفاعه حوالي ٥٦٤ م عن سطح البحر إلى الشمال الغربي من مدينة حلب (شكل ١) .

تقع بالقرب منها قرية صغيرة مأهولة بالسكان تدعى « دير سمعان » وقد ارتبطت حياة هذه القرية لفترة من الزمن فيما مضى من الناحيتين الاقتصادية والتاريخية بقلعة سمعان ؛ ويبدو أنها كانت قائمة قبل قيام قلعة سمعان في العصر البيزنطي إذ كانت تسمى تيلانيسوس (سيأتي الحديث عنها فيما بعد) وتقع بالقرب منها أيضاً على الطريق الرئيس الواصل إلى القلعة قرية تسمى دارة عزة ، وهي قرية نمت مؤخراً بشكل ملحوظ وأصبحت مركزاً لناحية تحمل اسمها . هذا وتحيط بقلعة سمعان عدة خرائب أثرية وغيرها سيجد القارىء وصفاً لبعضها لاحقاً وأهمها دير سمعان ، تقلة ، رفادة ، ست الروم والقاطورة ، يمكن الوصول إليها بسهولة مشياً على الأقدام أو بواسطة الرواحل (شكل ٢) .

هناك عدة طرق تؤدي إلى قلعة سمعان يمكن للزائر اتباعها ومن أهمها : (شكل ٣)

١ ــ طريق حلب ــ عفرين ــ باسوطة ــ الغزاوية ــ دير سمعان ــ قلعة سمعان .

٢ ــ طريق حلب ــ ضاحية حلب الجديدة ــ خناريج ــ كفر داعل ــ حور باشنطرة ــ دارة عزة ــ قلعة سمعان .

٣ ــ طريق حلب ــ باب الهوى ــ الدانا الشمالية ــ ترمانين ــ دارة عزة ــ قلعة سمعان .

٤ ــ طريق حلب ــ أورم ــ الأتارب ــ الدانا الشمالية ــ ترمانين ــ دارة عزة ــ قلعة سمعان .

يظهر من دراسة البيئة الجغرافية المحيطة بقلعة سمعان أنها قامت في منطقة مأهولة بالسكان كان يزرع أهلها أشجار الكرمة والتين والزيتون ، ولا تزال بقايا هذه الزراعات قائمة إلى يومنا هذا ، وتؤكد الخرائب التي ذكرناها آنفاً صحة هذا القول . كما يوجد بالقرب منها سهل القاطورة وسهل عفرين .

مناخ المنطقة بارد في الشتاء ومعتدل في الصيف . أما الأمطار فهي غالباً ما تكون غزيرة في الشتاء إلا في أعوام الشح ، يشتغل أهل المنطقة اليوم بالعمل في حقولهم المزروعة ببعض الزراعات الصيفية وأشجار الزيتون وزراعة بعض الخضار وتربية الماشية .

وذلك لأن المساحات القابلة للزراعة قليلة نظراً لأن المنطقة صخرية ، وقد أقبل أهلها على مدينة حلب للعمل في وظائف الدولة أو عمالاً في شركات القطاع العام .

حياة القديس سمعان

إن الحديث عن قلعة سمعان يفرض علينا الحديث عن الرجل الذي أعطى اسمه لهذه القلعة التي أصبحت تعرف في الكتب والمراجع « قلعة سمعان » . فمن هو هذا الرجل وما هي أهميته التاريخية .

يذكر الغزي (نهر الذهب ، جـ ١ ص ٤٦٦) أن القديس سمعان العمودي ولد في عام ٣٩٢ م في قرية من قرى كليكيا اسمها « سيسان » ، وكان أبواه من رعاة الغنم ، وعندما بلغ سمعان هذا الثالثة عشرة من عمره مال إلى الترهب فلازم أحد الأديرة ، ثم ما لبث أن انتقل إلى غيره من الأديرة رغبة في المزيد من التقشف وشظف العيش ، فيذكر البعض أنه في مطلع حياته الترهبية التحق برهبانية هيليودوروس Heliodorus (تل عادة اليوم) ، وبعد فترة من الزمن تقرب من العشرة أعوام لم تعجبه الحياة في تلك الرهبانية فانفصل عنها ليلتحق بدير في بلدة تيلانيسوس Telanissos (دير سمعان اليوم) . وخلال الأعوام الثلاثة التي قضاها في دير تيلانيسوس ، روض نفسه على الحياة القاسية

والصوم فلفت انتباه الناس إليه مما أثار حفيظة رؤسائه فقرروا عدم صلاحيته لحياة الدير وطلبوا منه مغادرته إلى مكان آخر ، عاش بعد ذلك في كهف صغير قريب ، وسرعان ما انتشرت أنباء حياة القديس سمعان القاسية فأقبل الناس عليه للزيارة والتبرك فضجر منهم وأحب الاعتزال مما دفعه إلى إقامة عمود لنفسه وآثر العيش فوقه ، ومن هنا جاءت تسميته « بالعمودي » (رباط ص ٨٠ ، صواف ص ٥) . اشتهر القديس سمعان بشفاء المرضى ، كما اشتهر بأنه مستجاب الدعاء ، ومن هنا جاء إقبال الناس عليه طلباً للشفاء والتوسط للتوسيع عنهم (الغزي ص ٤٦٦ ، رباط ص ٨٠ — ٨١) . ففي مجال شفاء المرضى يورد الهروي (الاشارات ص ٥) قصة شفائه لبنات أحد الملوك من مرضى الجذام تتلخص هذه في أن أحد الملوك كانت له ابنة مرضت بالجذام ، فأفردها أبوها في الجبل الذي تقوم عليه قلعة سمعان ، فمر عليها سمعان وطلب منها أن تسقيه ماء ، فأخرجت له الماء وسترت وجهها ، وعندما سألها عن سبب ذلك أجابته « إن بي مرضاً » فشرب من الماء الذي قدمته له ورش على وجهها بعضاً منه فبرئت بقدرة الله .

قلت أنه عندما أقبل الناس عليه تضايق منهم وابتنى لنفسه عموداً عاش فوقه بقية حياته . ويبدو أن هذا العمود تغير عدة

مرات ، فكان كلما أحس بمضايقة الناس يزيد من ارتفاعه ، وفي هذا الصدد يذكر الخوري جبرائيل رباط (العاديات ، ص ٨٠) أن أول عمود بناه سمعان بلغ ارتفاعه ستة أذرع أقام عليه أربعة أعوام ، ثم ابتنى عموداً آخر بلغ ارتفاعه اثني عشر ذراعاً ، ثم أقام عموداً ثالثاً بلغ ارتفاعه اثنين وعشرين ذراعاً ورابعاً بلغ ارتفاعه الأربعين ذراعاً ، بلغ مجموع ما أقامه من السنين فوق الأعمدة الثلاثة الأخيرة حوالي تسع وثلاثين سنة ، وظل على حياة التقشف والحياة فوق العمود حتى أدركته الوفاة عام ٤٥٩ م — ونقل جثمانه إلى مدينة أنطاكية ودفن في كنيسة قسطنطين الكبير . (رباط ٨١) معبِّداً الطريق أمام أسلوب العبادة فوق الأعمدة ، قلده فيها كثير من الرهبان الذين أتوا بعده كالقديس دانيال العمودي — St . Daniel stylites — (صواف ص ٨ ، Ency. Britta. 2I - 333) .

لقد كان القديس سمعان العمودي الكبير من بين شخصيات العصر البيزنطي الدينية الهامة فلقد كان يتمتع بنفوذ عالمي ، ساعد على ترسيخ ذلك النفوذ أتباعه من بعد ويعتبره نصارى حلب وغيرهم بأنه سيدهم (حميدة ص ١٩) كما أن المسيحيين الأرثوذكس يعتبرون يوم وفاته في ٤٥٩/٧/٢٦ ويوم دفنه في ١ أيلول من العام نفسه في أنطاكية عيدين دينين من أعيادهم (Ency. britta. 20 - 549 G) .

ويذكر فيليب حتي في كتابه تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين (جـ ١ ص ٤٠٤) أن مؤسس هذه الطريقة من التعبد القديس أنطوان المصري الذي آثر الاعتزال بالصحراء ومات في الفترة ما بين ٣٥٦ و ٣٦٣ م ، انتقلت هذه الطريقة بعد ذلك إلى سورية الجنوبية حيث أسس راهب اسمه هيلاريون Hilarion حركة الرهبنة تلك ، والراهب هيلاريون كان تلميذاً للقديس أنطوان ، وقد عاش بمدينة غزه في أواخر القرن الرابع . وفيما بعد نجد جماعات من النساك حول أنطاكية تتحدث عنهم كتب التاريخ وفي مطلع القرن الخامس الميلادي ظهر القديس سمعان العمودي وهو أول العموديين . وظلت هذه الطريقة من التعبد تمارس حتى القرن الخامس عشر الميلادي . وتضيف التقارير المعاصرة معلومات عن حياة القديس سمعان القاسية مما دفع الناس للاعجاب بتلك الحياة القاسية ، وقد سبب ذلك انتشار سمعة القديس انتشاراً واسعاً عن طريق العلاقات التجارية الدولية التي كان مركزها أنطاكية في ذلك الوقت . لقد جاء الحجاج من بلاد الغال وانجلترا واسبانيا وإيطاليا إلى قلعة سمعان ، وهنا نود أن نشير إلى أن القديس سمعان قد حظي بإعجاب وتقدير العرب المسلمين والفرس إضافة إلى تقدير الأخوة المسيحيين .

بناء الكنيسة الكبري (التاريخ والوصف المعماري)

ذاعت سمعة القديس سمعان وانتشرت طريقته في التعبد مما

دفع كثيراً من الرهبان إلى اتباع تلك الطريقة . ومن أهم العموديين المعروفين الذين ساروا على نهج سمعان العمودي ، القديس دانيال العمودي (٤٠٩ — ٤٩٣ م) في القسطنطينية ، القديس سمعان العمودي الصغير (٥١٧ — ٥٩٢م) على جبل بالقرب من أنطاكية ، القديس اليبيوس البغلفوني St. Alypius Paphlagonian (القرن السابع الميلادي) القديس لوقا Luke (٨٧٩ — ٩٧٩ م) في خالقيدونيا ، القديس اليعازر Lozarus (٩٦٨ — ١٠٥٤ م) على جبل جاليزيون Galesion بالقرب من أفسوس ، هذا إلى جانب عدد آخر من العموديين تذكرهم النصوص عاشوا باليونان والشرق الأوسط .

كما وجدت إشارة إلى قديسة عمودية . ولكن أبرز هؤلاء جميعاً كان القديس دانيال العمودي المار ذكره St. Daniel stylites الذي كان أحد تجار القسطنطينية الأغنياء ، فترك تجارته ودخل سلك الرهبنة وظل يتدرج فيها حتى نال حظوة كبيرة عند الامبراطورين ليو Leo وزينون Zenon فطالبهما ببناء كنيسة كبيرة تخليداً للقديس سمعان . وقد بدأ المشروع في عهد الامبراطور ليو ، ولكنه توفي قبل أن يتحقق ، فتولى الامبراطور زينون تحقيقه . بُدِىء العمل في بناء الكنيسة عام ٤٧٦ م وأُنجز في عام ٤٩٠ م أي أنه استمر حوالي الأربعة عشر عاماً ، وتعتبر

هذه الكنيسة أحد الانجازات المعمارية الرائعة التي حققها الامبراطور زينون في عهده ، وقد أنفق في بنائها الأموال الكثيرة .

بنيت الكنيسة على شكل صليب يتوسطه العمود الذي كان يعيش فوقه القديس سمعان (شكل ٤) (ومن هنا لقب بالعمودي) وفي نهاية القرن الخامس أقيمت بعض الأبنية حول الكنيسة سخرت لخدمتها ومن أهمها بناء المعمودية وبعض المنازل لتكون سكناً للرهبان وطلاب العلم (انظر الشكل ٥) . وفي الفترة ما بين ٥٢٦ ــ ٥٢٨ م التي سبقت الزلزال تطورت المنشآت ونمت (شكل ٦) . وحول هذا التاريخ ضرب سوريا الشمالية زلزال مدمر ألحق أضراراً كبيرة في المدن الهامة كحلب وأنطاكية وسلوقيا ، كما ألحق أضراراً بالغة بكنيسة سمعان الكبرى .

عندما حرر العرب المسلمون سوريا أبقوا الكنيسة الكبرى والدير بيد المؤمنين المسيحيين وفقاً لتقاليدهم عند تحرير الأرض وفتح البلدان القائمة على التسامح الديني ، كما أبقوا الكنائس والكتدرائيات بيد أصحابها في حلب والرصافة ودمشق والقدس وغيرها من البلدان(*) . ولكن عندما ضعفت الدولة العربية

(*) هناك خلاف في سنة وفاة القديس سمعان ، ففي حين يذكر الرباط أنه توفي عام ٤٥٩ م يذكر الغزي بأنه توفي عام ٤٦١ م .

الاسلامية وتمزقت استطاع البيزنطيون العودة إلى اغتصاب كنيسة سمعان وحصنوها وبذلك تحولت إلى قلعة منيعة ، ومنذ ذلك الوقت أصبحت تعرف باسم « قلعة سمعان » . ظلت القلعة بيد البيزنطيين قرابة القرن تشكل حصناً منيعاً من الحصون الدفاعية أمام حدود إمارة حلب الحمدانية ، في أثناء هذه الفترة رصفت الكنيسة بالفسيفساء وأجريت بعض الترميمات ، وهذا ما تشير إليه الكتابة التي وجدت على الفسيفساء التي اكتشفت في أرضية الكنيسة إذ تذكر أن الامبراطور باسيل الثاني (٩٧٦ — ١٠٢٦ م) وأخاه قسطنطين الثامن (٩٧٦ — ١٠٢٨ م) قد قاما برصف الكنيسة بالفسيفساء وإجراء بعض الإضافات والإصلاحات فيها .

في عام ٩٨٦ م تمكن الأمير الحمداني سعد الدولة ابن سيف الدولة من استعادة قلعة سمعان بعد حصار استمر ثلاثة أيام ، وفي عام ١٠١٧ م نجح الفاطميون الذين سيطروا على سوريا الشمالية وقتذاك من السيطرة على قلعة سمعان بعد أن بذلوا جهداً كبيراً في سبيل ذلك .

بعد هذا التاريخ لم يعد للقلعة أهمية عسكرية وهجرت تدريجياً ، سكنها في القرن السادس عشر أحد المتنفذين الأكراد وأقام في الضلع الشرقي من الكنيسة الكبرى طابقين ، كما سكن

المعمودية متنفذ آخر من المناطق المجاورة (انظر الشكل ٧) . إلى أن قامت السلطات الأثرية بإفراغها والاعتناء بها .

في أواخر القرن الماضي زارها الرحالة الافرنسي المركيز دو فوجيه Marquis de Vogue وكتب وصفاً دقيقاً لها ، كما قام برسم المخططات جاءت بعده بعثة جامعة برنستون من الولايات المتحدة الأمريكية وقامت بوضع دراسة شاملة .

قامت الكنيسة الكبرى فوق قمة المرتفع الصخري الذي عليه قلعة سمعان ، بنيت على شكل صليب على مساحة من الأرض تقدر بحوالي ٥٠٠٠ م مربع ، أقيمت الواجهة الرئيسية التي تؤلف المدخل على طراز يشبه الطراز الروماني في البناء وهو يتألف من ردهة أمامية Narthex كبيرة يصل عرضها إلى حوالي ٢٤ يارده ، تتألف من ثلاث أقواس إحداها كبيرة وتقع في الوسط أما الأخريان فهما أصغر حجماً وتقعان على جانبي القوس الكبيرة ، يقوم فوق كل قوس من الأقواس الثلاث مثلث يتناسب مع حجم الأقواس والمثلثات مزينة بأشكال جميلة . ترتكز القوس الكبيرة على عمودين لكل منهما تاج مزين بزخارف كورنثية تبدو فيها أوراق نبات الخرشوف مائلة باتجاه الريح وهذا النوع من التزيينات النباتية مألوف في العمارة السورية في القرنين الخامس والسادس الميلاديين ، كما زينت الركائز والأطناف بتزيينات متقنة

الصنعة بارزة ، ومن خلال دراسة المخطط الأفقي الذي رسمه كرنكر (كنيسة الحجاج [شكل ٢] ١٩٣٩) . نجد أن الكنيسة الكبرى تتألف من أربعة أقسام يتوسطها شكل مثمن يقوم في وسطه العمود المقدس الذي كان يتعبد فوقه القديس سمعان . يتكون كل قسم من ثلاثة أروقة ، رواق كبير بالوسط وآخران أقل عرضاً على الجانبين ، يفصل هذه الأروقة عن بعضها البعض صفان من الأعمدة يتألف كل صف من ستة أعمدة لاتزال بقايا قواعدها ظاهرة ، وأقسام الكنيسة الكبرى الأربعة متشابهة تماماً فيما يتعلق بالأروقة والأعمدة ، فيما عدا القسم الشرقي فقد أضيف إلى نهاية أروقته ثلاث حنيات إحداهما كبيرة في الوسط والأخريان صغيرتان على الجانبين ، كما أضيفت غرفتان مربّعتان على جانبيها ، الجنوبية منها لاستخدام الكهنة وتسمى الدياكونيكون Diaconicon ، أما الشمالية فهي لعامة الناس وتدعى البروتيذيس Protesis ، كما يلاحظ هنا انحراف قليل نحو الشمال في هذا الضلع من أضلاع الصليب لكي تصبح الحنايا باتجاه الشرق تماماً . وسنأتي على وصف الحنايا . بشيء من التفصيل في حينه .

والآن سنصف أضلاع الكنيسة الكبرى ضلعاً ضلعاً ، ومما هو جدير بالذكر أن كل ضلع من الأضلاع يمكن اعتباره كنيسة

من نوع البازيليكا Basilica :

الضلع الجنوبي

مر معنا وصف واجهة هذا الضلع التي تشكل المدخل الرئيسي للكنيسة الكبرى ، يؤدي المدخل الرئيسي لهذا الضلع إلى رواق يعتقد أنه كان مسقوفاً تعلوه شرفة كانت تطل على الباحة الأمامية حيث يستطيع المرء مشاهدة جميع زوار القلعة . يلي الرواق شمالاً أربعة أبواب يفضي اثنان منها إلى الرواق الكبير للكنيسة أما البابان الآخران فيفضي كل منهما إلى رواق جانبي يقابله . ويلاحظ الزائر هنا كيف لجأ المعمار السوري إلى تخفيف الثقل عن الساكف ، فقد عمد إلى إحداث فجوة نصف دائرية يرتكز طرفاها على الجدار الأساسي ، وبهذه الطريقة حفظت جميع سواكف البناء حتى يومنا هذا ، كما لابد أن يلاحظ الزخارف البديعة البارزة التي تعلو الساكف والمؤلفة من ورق الخرشوف المجوف والملون باللون الأحمر الذي يظهر على بعض الأقسام ، ويبدو أن اللون الأحمر كان طبقة دهانية تأسيسية تأتي بعدها طبقة من الدهان ذي اللون الذهبي أو الفضي . يقوم فوق بابي الرواق الأوسط جدار عال جعلت به أربع نوافذ تعلوها زخرفة نفذت على شكل شريط بارز يتجه من الأسفل إلى الأعلى ، ويدور حول الأقسام العلوية النوافذ وهو مع الأعمدة الصغيرة المتوضعة بين

النوافذ تعطي البناء شكلاً جميلاً . وإذا ما دخلنا إلى داخل الكنيسة نجد أنفسنا في بناء يكاد يكون مربع الشكل تقريباً يبلغ طوله ٢٥ متراً وعرضه ٢٤ متراً ، وهو مقسم إلى ثلاثة أروقة كما ذكرنا سابقاً . أما فيما يتعلق بالسقف فيظهر حسب تصور كرنكر أنه عمل على شكل جمالوني بالنسبة للرواق الأوسط ومائل بالنسبة للأروقة الجانبية ليسهل تصريف مياه الأمطار وبالتالي جمعها في صهاريج خاصة لتزويد القلعة بالمياه خلال أيام السنة ، يرتكز السقف الجملوني على جدران فتحت فيها نوافذ عدة لتمكين الإنارة الطبيعية من النفاذ إلى الداخل ، ومما تصوره أيضاً كرنكر أن نظام التسقيف هذا كان واحداً بالنسبة لجميع سقوف الكنيسة الكبرى (شكل ٨) .

يوجد في هذا الضلع عشرة أبواب ثلاثة منها في الجدار الشرقي وثلاثة أخرى في الجدار الغربي ، أما الأربعة الباقية فهي في الجدار الجنوبي كما مر معنا .

أما الضلع الغربي للكنيسة الكبرى فبني على منحدر المرتفع الصخري الغربية مما اضطرهم لبناء ركائز وأقواس قوية لتتمكن من حمل البناء ، وقد فرض ذلك العمل موقع العمود المقدس الذي جعل في وسط الكنيسة الكبرى ، وتفترض البقايا المعمارية هنا وجود شرفة كبيرة تشرف على الوادي وبالتالي سهل عفرين ،

ومما يؤسف له أن هذا الجناح من الكنيسة الكبرى قد تعرض أكثر من غيره من الأجنحة للخراب ، هذا ويذكر الصواف (قلعة سمعان ص ٤٧ ، ١٩٦١) أن المهندس الفرنسي ايكوشار يعتقد بأن المدخل الرئيسي للكنيسة الكبرى كان في الجهة الغربية من هذا الضلع قبل تخريبه ثم نقل إلى الضلع الجنوبي . كذلك بني الضلع الشمالي من الكنيسة على نفس الطراز الذي رأيناه في الضلعين السابقين وهذا ما تشير إليه البقايا المعمارية ، هذا وقد عثر على بقايا أرضية فسيفسائية مؤلفة من تصاميم هندسية كانت ترصف أرضية هذا الضلع ، لا تزال أجزاء منها في مكانها الأصلي وخاصة في الرواق الشرقي الضيق ، جدران هذا الضلع لا زالت أعلى من مثيلاتها من جدران الكنيسة الكبرى ، وفيه ثمانية أبواب ثلاثة منها في الجدار الشرقي واثنان في الجدار الغربي والثلاثة الباقية في الجدار الشمالي ، أما سواكفها فمزينة بنقوش جميلة منها على شكل صليب ومنها على شكل أزهار مختلفة ، وقد أظهرت التنقيبات الأثرية التي أجرتها المديرية العامة للآثار والمتاحف أمام الجدار الشمالي من الخارج قواعد أعمدة لازالت في أماكنها الأصلية مما قاد إلى الاعتقاد بأنه من المحتمل أن يكون هناك رواق كان يرتكز سقفه على الأعمدة التي كانت تنتصب فوق تلك القواعد .

إن أهم وأجمل ضلع في الكنيسة الكبرى دون شك هو الضلع الشرقي ، لقد خصص هذا الضلع لإقامة الطقوس الدينية وهو أطول من الأضلاع الأخرى بمقدار سبعة أمتار تقريباً ، إذ يبلغ طوله اثنين وثلاثين متراً ، هذا بالإضافة إلى ستة أمتار للحنية الوسطى ، وقد ترتب على زيادة الطول هنا إضافة عمود حيث أصبحت الأعمدة سبعة بدلاً من ستة . كانت أرضية هذا الجناح مرصوفة بالفسيفساء ذات تزيينات هندسية . ويبدو أن هذه الفسيفساء خربت في فترة من فتراتها التاريخية وأعيد ترميمها بدلالة الاختلافات الموجودة بينها ، فهي في الجانب الشرقي أدق صنعاً وذات تزيينات نباتية . وهنا نلاحظ أن قواعد الأعمدة التي تفصل الرواق الجنوبي عن الرواق الأوسط موجودة في أماكنها في حين أن القواعد التي تفصل بين الرواق الشمالي والراوق الأوسط غير موجودة ، ويبدو أن سبب ذلك أن هذا الجناح من الكنيسة الكبرى قد سكن من قبل الأغوات الأكراد في القرنين السادس عشر والسابع عشر ، كما ذكرنا في موضع آخر ، وقد قضت ضرورة السكن رفع قواعد الأعمدة وتوضيب المكان ليصلح لأداء الوظيفة الجديدة (شكل ٩) . في هذا الضلع أربعة أبواب اثنان في الجدار الشمالي وآخران في الجدار الجنوبي ، خصص الباب القريب من الحنايا في كل من الجدارين لدخول الرجال ، أما البابان الآخران فقد خصصا لدخول النساء . وتدل

كتابة باللغة اليونانية عثر عليها مكتوبة على الأرضية الفسيفسائية باللونين الأسود والأبيض على أن هذا الضلع قد رسم في عهد الامبراطور باسيل الثاني (٩٧٦ — ١٠٢٦) .

مر معنا أنه في آخر الضلع الشرقي من الكنيسة الكبرى أضيفت حنيات ثلاث يصعد إليها بدرجات ثلاث ، أي أن أرضيتها ترتفع عن سوية باقي أرضية الجناح ويعرف عادة بالأيقونسطاس ، وكان المذبح يوضع أمام الحنية الكبيرة الوسطى .

زينت الحنية الشمالية بتاج كورنثي الطراز يرتكز على ركيزة مرتفعة من كل جانب حليت بخطوط طولانية تجعلها وكأنها مضلعة ، وفوق التاج ترتكز قوس مزينة بزخارف بارزة وهنا تظهر الحنية على شكل نصف دائرة في وسطها نافذة طولانية يعلوها قوس كروية ، فوق هذه النافذة شريط مزين بألوان مختلفة وزهور متعددة . أما الحنية الوسطى الكبيرة فجعل فيها خمس نوافذ تشبه نافذة الحنية الأولى ، يعلو هذه النوافذ شريط مزين بتزيينات نباتية بارزة مكونة من الخرشوف وعروق زهر العاشق وعناقيد العنب وأوراق الكرمة وهناك على جانب من جوانب هذه الحنية عضادة (ركيزة) حفر عليها أخاديد طولانية . فوق كل من الركيزتين تاج كورنثي مزين بأوراق الخرشوف ، يليهما إلى

الأعلى قوس يعلوها شريط محزم وملون في بعض أقسامه بلون أحمر ، وربما كان يغطى هذا اللون بلون ذهبي أو فضي كما مر معنا في الجناح الجنوبي . وما من شك أن الفنانيين قد بذلوا جهداً فائقاً في إبداع نقوش هذه الحنية ليأتي على هذه الروعة والدقة . فيما يتعلق بالحنية الثالثة فهي تشبه تماماً الحنية الأولى ، باختلاف واحد وهو أن الشريط التزييني هنا غير ملون . هناك تزيينات بديعة بارزة تتألف من ورق الخرشوف والصلبان البيزنطية في الضلـع الشرقي وكـذلك الجدران الخلفيـة للضعـلين الشمـالي والشرقي ، وهذه التزيينات عموماً تنسجم مع التزيينـات التـي كانت شائعة في عصرها .

أما الشكل ذو الثمانية أضلاع فقد أقيم حول عمود سمعان ويعتقد أنه أول جزء بني من الكنيسة الكبرى ، وبما أنه أقيم حول العمود الملمح إليه ، فإنه يقوم بوظيفة الموزع لأقسام الكنيسة الأربعة عبر أربع أقواس ، قوس لكل ضلع . زينت هذه الأقواس من الجانبين بنقوش بديعة تشبـه النقـوش السائـدة في الأجـزاء الأخرى من الكنيسة وفي غيرها من المواقع المعاصرة في جبـال سمعان وبارشيا والأعلى ، وكذلك زينت بتيجان كورنثية ترتكز على أعمدة . في زوايا المثمن وعند نقطة اتصاله بأضلاع الأجنحة الأربع ، أربعة منحنيات تشبه المحاريب استخدمت للصلاة في

بادىء الأمر ثم فيما بعد لوضع توابيت تضم رفات رجال الدين المشهورين الذين عاشوا بالمنطقة وقدموا خدمات دينية هامة . أرضية المثمن مبلطة بأحجار كبيرة لازالت بقاياها موجودة (انظر الشكل ١٠) . وقد بلغ قطره حوالي ٢٦,٦٧ م .

التحصينات

ذكرنا أن الكنيسة الكبيرة والدير تحولا إلى قلعة في القرن العاشر فأضيفت إليها أسوار وأبراج لا تزال بقاياها إلى يومنا هذا . وقد يرى جلياً الاختلاف في تقنية البناء بين أبنية القرنين الخامس والسادس وتحصينات القرن العاشر . بلغ عدد الأبراج المقامة سبعة وعشرين برجاً على السور ، هذا إلى جانب عدد من الأبراج البارزة الأخرى وبتلك التحصينات أصبحت كنيسة سمعان منيعة يصعب النيل منها بسهولة (شكل ١١) وهذا هو السبب الذي جعل الناس يسمونها بقلعة سمعان .

الأبنية الملحقة (الرهبانية ، المدافن ، المعمودية ، الفنادق)

عند الطرف الشرقي من الضلع الشرقي للكنيسة الكبرى وفي الزاوية الجنوبية الشرقية أقيمت كنيسة صغيرة تتألف من ثلاثة أروقة أعرضها الرواق الأوسط الذي ينتهي بحنية ، أما الجانبيان فهما أضيق وينتهي كل منهما بغرفة مستطيلة يولج إليها من الرواق

نفسه . يفصل الأروقة الثلاثة عن بعضها البعض صفان من الأعمدة يتألف كل صف من أربعة أعمدة . أما الباب الرئيسي فتعلوه شرفة تستند إلى خمسة أعمدة وهي تشبه الشرفات التي تحيط بالجدارين الشمالي والغربي من الجناح الشمالي والجدار الشمالي من الجناح الغربي . يدخل إلى الكنيسة الصغيرة من بابين جانبيين أحدهما من الجدار الجنوبي والثاني من الجدار الشمالي عبر الغرفة الملحقة Diaconicon في الضلع الشرقي من الكنيسة الكبرى (انظر بتلر العمارة القديمة في سورية ، قسم ب ص ٦ لوح ٢٣) يعتقد أن هذه الكنيسة كانت لتأدية الصلاة في الأيام العادية ، أما الكنيسة الكبرى فخصصت للمناسبات والأعياد وأيام الآحاد .

يتصل بالكنيسة الصغيرة (المصلى) التي تحدثنا عنها أعلاه من الجهة الجنوبية والجنوبية الشرقية بناء كبير يعرف بالدير أو الرهبانية ، بني في ثلاثة طوابق وله ساحة واسعة ، وكرس لسكن الرهبان ، لازالت بعض بقاياه قائمة منها الواجهة الأمامية للرواق من القسم الجنوبي ، وربما كان لكل طابق من الطوابق الثلاث شرفة خشبية ترتكز على القسم الداخلي في الرواق من جهة وعلى بناء الدير من جهة أخرى . أما القسم الجنوبي الشرقي فلا زال رواقه سليماً .

وقبل الانتقال إلى المنشآت المعمارية الجنوبية والتي تعرف بالمعمودية وملحقاتها لابد أن نذكر أن هناك مدافن بجوار جدار السور الشمالي نحتت في الصخر لتكون مقطعاً للحجارة ، ثم ما لبثت أن حولت إلى مدافن وسقفت على شكل هرمي ربما بالخشب أو القرميد . في أرضية غرفة الدفن هذه تجويف يؤدي إلى قبو كانت تجمع فيه عظام الموتى بعد جمعها من النواويس .. وإذا اتجه الزائر جنوباً يصل إلى مجموعة من المباني تتألف من بناء يعرف بالمعمودية يجاوره بناء الكنيسة ، ثم تحيط بهما من الشرق والغرب أبنية الفنادق ، بنيت في مراحل متعاقبة كما هو الحال في الكنيسة الكبرى والرهبانية (انظر الشكل ١٢) .

يصعد إلى بناء المعمودية المرتفع قليلاً عن الأرض بثلاث درجات ، وهو بناء مربع تقريباً من الخارج يتوسطه بناء بشكل مثمن من الداخل ، ويعلو هذا البناء المثمن آخر ولكنه يختلف عنه بعدم تطابق الأضلاع . يبدو من بقايا الفسيفساء على جوانب الأرضيات أن أرضية المعمودية كانت مرصوفة بالفسيفساء المزينة بالأشكال الهندسية والنباتية . للمعمودية حنية من الناحية الشرقية محلاة بتاجين كورنثين ويقوم فيها جرن المعمودية المزين بالفسيفساء ، يولج إلى هذه الحنية عبر بابين يصعد إليهما بدرجات ثلاثة أحدهما من الشمال والآخر من الجنوب للوصل إلى جرن

المعمودية من الخلف .

أما المثمن فيدخل إليه بواسطة ثلاثة أبواب أحدهما في الجانب الشمالي والثاني من الجانب الغربي أما الثالث فمن الجانب الجنوبي ، يعلوه مثمن آخر كما ذكرنا آنفاً أصغر حجماً ، نلاحظ في زواياه قواعد أعمدة صغيرة استعملت كركائز يقوم عليها سقف البناء المقبب . يتخلل قاعدة القبة عدة نوافذ للإنارة ، أقيم حول المعمودية رواق طويل كان يطوف به المصلون قبل عملية التعميد وبعدها ، ويظهر أنه كان للرواق أقواس ترتكز على أعمدة . نلاحظ أن هناك عدة نوافذ وأبواب فتحت في الجدار الغربي للمعمودية زخرفت سواكفها بزخارف جميلة بارزة من عروق الخرشوف ، كما عمل صليب بيزنطي داخل دائرة في وسط كل ساكف .

تتصل المعمودية بواسطة باب كنيسة صغيرة أقيمت في الجانب الجنوبي من المعمودية وهي ذات ثلاثة أروقة تفصل بينها أقواس ترتكز على ثمانية أعمدة أربعة من كل جانب كما يبدو من مخطط عمله المهندس تشلنكو (انظر الشكل ١٢) تزينها تيجان كورنثية ، في نهاية الرواق الأوسط باتجاه الشرق حنية على كل جانب من جانبيها العلويين تاج كورنثي مشابه لتيجان الكنيسة الكبرى ، تحيط بالحنية أيضاً غرفتان إحداهما في الطرف الشمالي

(الدياكونيكون) والثانية في الطرف الجنـوبي (البروتيتـيس) عدلت هاتان الغرفتان في العصور الوسطى عندما حولت المنطقة إلى قلعة لتصبحا برجين دفاعيين (البرجان رقم ٢٠ ، ٢١ في الشكل ١١) ، وإلى الشرق والغرب من المعمودية توجد بقايا أبنيـة مستطيلـة كان لها أروقـة كانت تستعمـل كنـزل للـزوار والحجاج القادمين لزيارة كنيسة سمعان العمودي . هناك بالقرب من الزاوية الجنوبية الغربية بابان كبيران تعلوهما أقواس كثيرة سد احدهما في القرون الوسطى وبقي الآخر مفتوحاً ، كان يخرج من هذين البابين (البرجان ٢٣ ، ٢٤ في الشكل ١١) إلى الطريق المقدس الواصل بين قلعة سمعان ودير سمعان يليهما جنوباً بابان آخران (البرجان ٢٥ ، ٢٦ في الشكل ١١) وبين القلعة ودير سمعان أقيم قوس نصر لازالت بقاياها صامدة .

قبل أن أنهي هذا الوصف الموجز لقلعة سمعان لابد أن أجيب عن سؤال يتلخص كيف كانت القلعة تتزود بالماء ؟ وللإجابة عن هذا السؤال أقول إن أهم مصدر للمياه في قلعة سمعان هو المطر ، فقد حفرت عدة خزانات بالقلعة لجمع مياه الأمطار أيام الشتاء ، منها خزان كبير يقع إلى الغرب من الكنيسة الكبرى لاتزال آثاره بادية للعيان ، كما أن هناك خزاناً بالقرب من المعمودية وعليه فإن سكان القلعة قد لاتكون الشكوى من نقص المياه واردة لديهم إذا جادت السماء بمائها .

مواقع وخرائب يمكن زيارتها انطلاقاً من قلعة سمعان

دير سمعان* (شكل ١٣)

تقع القرية المعروفة « بدير سِمْعان » في الطرف الجنوبي الغربي من قلعة سمعان ، كانت تعرف بالعهد البيزنطي باسم تيلانيسوس Telanissos وهو اسم يوناني يعني (تل النساء) ومع الزمن لحق بها اسم سمعان لأن اسمه ظل الأكثر أهمية في أذهان عامة الشعب ، ولأن القرية ظلت فترة من حياتها الاقتصادية تعيش على الموارد التي تجنيها من الحجاج والزائرين والسياح الذين كانوا يتوافدون لزيارة المكان الذي عاش فيه القديس سمعان متنسكاً بقية حياته .

كانت مدينة تيلانيسوس في العصر البيزنطي مركزاً دينياً مرموقاً ترنو إليه أعين طالبي المعرفة والتثقف بالدين المسيحي ،

(*) يقول ياقوت نقلاً عن العمراني أن سمعان اسم وموقع بالشام فيه قبر الخليفة الأموي عمر بن عبد العزيز رضي الله عنه وقيل فيه :

دير سمعان لا عدتك العوادي خير ميت من آل مروان ميتك

ياقوت (م ٥ ص ١٢٧) وقد يكون المقصود بهذا موقع آخر يحمل هذا الاسم يقع شرقي المعرة يعتقد البعض أن الخليفة عمر بن عبد العزيز قد دفن فيه ولا يزال إلى اليوم به ضريح يعرف بضريح عمر بن عبد العزيز قامت مديرية الآثار والمتاحف مؤخراً بترميمه .

وذلك في القرون الأربعة الأولى من التاريخ الميلادي ، فقد شد الرحال إليها الكثيرون من طلاب العلم لاكتسابه عن طريق ملازمتهم لرهبان أديرتها ، كما وفد إليها الحجاج من سائر بقاع الدنيا ، ومن أهم الشخصيات الدينية كان القديس سمعان العمودي ، كما مر معنا سابقاً ، هذا إلى جانب أن المدينة كانت منتجعاً لأهل مدينة أنطاكية الأغنياء ، وفي نفس الوقت كانت ملجأ للمتهربين من دفع الضرائب وتأدية الخدمة العسكرية والديون وذلك بدخولهم سلك الرهبنة أو الالتجاء إلى الأديرة لحمايتهم ، مما دفع بالامبراطور جوليان المعروف بالمرتد إلى إصدار تشريع حدد بموجبه المؤسسات الرهبانية في البلاد .

انتعشت المدينة في القرن الخامس الميلادي فهي إلى جانب وقوعها بالقرب من قلعة سمعان ، تقع على الطريق بين مدينتي أفامية وسيروس (النبي هوري) ، حتى أصبحت بنهاية القرن الخامس ومطلع القرن السادس الميلادي تضم حيّاً للحجاج وفنادق ، وكنيسة ، وثلاثة أديرة للرهبان ومكان إقامة كبيراً للرسميين (Andron) وقوس نصر يولج منها إلى قلعة سمعان لايزال الجزء الأكبر منها بادياً للعيان حتى يومنا هذا وكان هناك طريق يعرف بالطريق المقدس يصل بين المدينة وقلعة سمعان ، لاتزال قواعد الأعمدة والبيوت التي كانت تحيط به منظورة .

في البدء أضاف الرهبان نزلاً (مضافة) إلى الأبنية الدينية التي كانت تتألف من بناء أو أكثر والتي كانت قد أسست في تيلانيسوس ، وتبع ذلك مضافات خاصة ، وهناك كتابة تشير إلى رغبات أحد الملاك « الصحة والثروة » ، لايوجد هناك أسواق عامة فيما عدا صف من الدكاكين إلى الجنوب من الخرائب ، كما لاتوجد فيلات خاصة ، أما فيما يخص البناء المرتفع والمؤلف من ثلاثة أروقة والذي يقع في وسط الخرائب فهو بكل تأكيد دار للضيافة لكبار الزوار ، وباستثناء هذا الأثر ، فإن المباني الهامة موجودة في زوايا المدينة الأربع ، فعند نقطة اتصال الطريق المقدّس بالخرائب تسير طريق قديمة جنوباً على طول الأروقة المخربة والتي تعود حسب نصّ كتابي إلى المضافة Pandocheion وبعد ذلك يُتابع المرء المرور خلف صف الدكاكين ؛ وإلى الجنوب الشرقي يمكن للزائر أن يرى معالم قاعات ظاهرة تعود إلى فندقين ، وإذا سار إلى الجانب الشمالي من البلدة يصل إلى كنيسة تقع إلى الشمال الشرقي حيث تنصب الدياكونيكون diaconicon كالبرج وبالقرب من بوابة ذات حليات جميلة ، وإذا سار شمالاً من هذه النقطة ، يصل إلى بناء ذي ثلاثة أروقة ، سبق ذكره ، وبعدها يصل إلى الكنائس المعروفة في الطرفين الشمالي الغربي والجنوبي الغربي . وعلى الرغم من أن تلك الأبنية قد بنيت لتأوي جماعة المصلين (الحجاج) ، فإنها تعتبر جزءاً من الرهبانيات ، التي

اضيفت إليها المضافات ، تغطى الرهابنة الشمالية الغربية مساحة مستطيلة طولها ٢٣٠ قدماً وعرضها ١٦٠ قدماً وتبلغ أطوال الكنيسة ٧٢ × ٥٢ قدماً وتقسم إلى صفين يتألف كل منها من خَمْسة أعمدة ، وفي النهاية هناك طاق دائري يبلغ عمقه ١٣ $\frac{1}{2}$ قدم يقع بين البروتيسيس Prothesis والدياكونيكون . توجد عند قاعدتي عمودين من الأعمدة تجاويف ربما كانت لوضع ستارة حاجزة تفصل المكان المخصص للنساء ؛ وإلى الشرق يوجد مدفن مربّع وهو أثر فريد من نوعه يدخل إليه من باحة داخلية تقع إلى الشمال من الكنيسة عبر أحد ثلاثة مداخل تقوم أقواسها فوق أعمدة ذات تيجان كورنثيه ، أما الجوانب الثلاثة الأخرى فبناء ذو طابقين وخمس نوافذ في كل واجهة بنيت دعائمه بالحجارة الكلسية وكذلك الجائز (الدعامة) وتوجد في الجدار السفلي للبناء الطابقي خمسة أو ستة أقواس تسير على طول الجوانب . أما الرهبانية التي تقع في الشمال الغربي فهي على درجة من الأهمية وذلك بسبب كنيستها التي تبلغ أطوالها ٥٥ قدماً طولاً و ٢٦ عرضاً وهي ذات محور واحد وحنيه مربّعة وهي محفوظة بشكل جيد ، وإلى الشمال والغرب من الكنيسة توجد ساحة محاطة بسياج يتصل ببناء الرهبانية والمضافتين ، وخارج هذا السياج ، وإلى الشرق ، يوجد مقلع للحجارة تحول إلى خزان للمياه وبعد ذلك ، وبالقرب من البيدر ، يوجد مدفن ذو قوس عريضة .

هذا عن خرائب دير سمعان أما عن القرية الحديثة التي تقوم بين الأنقاض ، فهي قليلة السكان يعيش معظم أهلها على الأعمال الزراعية مثل الزيتون والتين والزراعات الشتوية هذا إلى جانب تربية الماشية ، وقد نزح قسم كبير من أهل هذه القرية إلى حلب للاشتغال بالأعمال الحرة أو للعمل في وظائف الدولة . وفي الآونة الأخيرة شهدت القرية حركة عمرانية ، قد تكون محدودة ، بسبب أموال أبنائها المغتربين فبدؤوا يحسّنون مساكنهم ، فخرجوا من الخرائب التي كانوا يقيمون فيها وبنوا بيوتاً من الاسمنت داخل الخرائب مشوهين بذلك الخرائب ومحيطها . قامت الدولة مؤخراً بإيصال الماء والكهرباء إلى القرية كما أحدثت مدرسة ابتدائية فيها ، وفي تصوري أنه إذا لم تتدخل السلطات الأثرية أو السياحية عاجلاً فلن يمض وقت طويل حتى تتخرب معالم مدينة « تل النساء » . ومن المفيد أن يحافظ على معالم المدينة التاريخية ويمنح السكان هناك قطعاً من الأرض تستملك لإقامة قرية حديثة عليها ، لقد كانت هناك بالفعل خطة جرى التفكير فيها قبل ثلاثين عاماً تقريباً وتم الاتصال بأملاك الدولة لتخصيص أرض تقام عليها القرية الحديثة بعيداً عن الخرائب ، وفي نفس المنطقة ، ولا يعلم ماذا تم بشأنها ، فلو نفذت تلك الخطة لكانت مديرية الآثار قد أحسنت صنعاً ولتم إنقاذ الآثار المعمارية الأثرية في القرية . وتصوري أن الوقت لم يفت وبالإمكان تصور قرية دير سمعان بأبنيتها وكنائسها

وساحاتها العامة وقد أعيدت الحياة إليها من جديد بعد ترميمها ، عن طريق استقدام السائحين من شتى أرجاء المعمورة . ولا شك أن وجود القرية بجوار قلعة سمعان سيفيد كثيراً في إنعاش المشروع وتطويره .

براد وقصر براد

قرية صغيرة تقع فوق هضبة في شمال جبل سمعان ، تتصل بسهل حلب شرقاً بطريقين ينزلان إلى السهل ، أما في الغرب فتتصل بعفرين .

موقع القرية قديم ، ربما يعود الاستيطان فيه إلى القرنين الثاني والثالث حيث نجد فيه معبداً وضريحاً ودكاكين تشير إلى وجود صناعة الزيت (٢٠٢ — ٢٠٣ م) .

تطورت القرية كثيراً في القرن الرابع ففي وسطها توجد كنيسة القديس جوليان (٣٩٩ — ٤٠٢ م) ويبدو أنها بنيت فوق معبد أقدم . كما توسعت نحو الجنوب الشرقي ؛ وخلال القرنين الخامس والسادس ، أقيمت الأحياء الغربية وتشمل كنيستين إحداهما تعود إلى عام ٥٦١ م ، أما في الشمال الغربي فقد أقيم مقر الإقامة الرسمية نحو عام ٤٩٦ م . وفي الجنوب الغربي وعلى بعد نحو ٥٠٠ م أقيمت الرهبانية في القرن السادس .

ازداد عدد السكان وبالتالي المساكن في القرن السابع الميلادي وأخذت شكلها العمراني حيث أصبحت لها شبكة من الطرق الداخلية . كانت براد تعتبر في ذلك العصر مركزاً صناعياً وزراعياً ، ويبدو أنّ ثراءها عائد إلى ممارسة الزراعات المختلفة مثل الحبوب والزيتون والكرمة إلى جانب تطور الصناعة وخاصة صناعة زيت الزيتون وهي اليوم قرية صغيرة يسكنها بعض الفلاحين .

برج حيدر

قرية وخرائب ، تقع في الجزء الأوسط من جبل سمعان وهي تبعد نحو ٣ كم إلى الشمال الشرقي من قرية باسوفان ، وأربعة كيلومترات إلى الجنوب من خرائب براد لازالت هناك معالم قائمة لكنيسة صغيرة إلى الشمال الغربي من القرية تعود إلى القرن الرابع الميلاد ، كما أنها تضم أي الخرائب مشهداً لتكريم أحد القديسين يتصل بالكنيسة عن طريق diaconicon ، تحدث عن برج حيدر دوسو في كتابه (...Topographie) وبتلر (PAES,II, B292) .

دارة عزه أو ديرة عزه

قرية ذات ملامح أثرية تاريخية في جبل سمعان ، تقوم عند السفح الشرقي لجبل الشيخ بركات ، كانت فيها كنيسة إلى الشمال

من القرية حسب دوسو (P.224) تشبه في مخططها وفي أطوالها دير ترمانين وهي بائدة اليوم وقد تأسست من قبل الراهب أوزيب أو من قبل تلاميذه . أما القرية فكانت إلى وقت قريب تشتهر بصناعة النسيج اليدوي ، لكن عدداً كبيراً من سكانها هجرها للاستقرار في حلب طلباً للعيش وبرز من أهلها عدد من العلماء والمثقفين ، ويعمل معظم أهلها بالزراعة ووظائف الدولة .

جبل الشيخ بركات

يقوم إلى الغرب من قرية دارة عزه ، يوجد فوق قمته مقام اسلامي ومعبد يعتقد أنه كان مكرساً للرب زيوس ، قامت مؤخراً بعثة فرنسية بإجراء بعض التنقيبات الأثرية في منطقة قمة التل .

ست الروم

وتتألف من مجموعة خرائب في جبل سمعان على بعد ٣ كم إلى الجنوب الغربي من قلعة سمعان ، تضم كنيسة غير محققة تقع إلى الشرق من الخرائب .

رفادة

مجموعة خرائب تقع على هضبة صخرية تسيطر على سهل القاطورة من الجهة الغربية . عثر فيها على كتابة تعود إلى القرن

الأول . انتعشت القرية منذ القرن الثاني حتى القرن السابع ، تو جد عدد من الفيللات الجميلة في مجموعات عمارتها جميلة وفيها برج كبير وكنيسة ، ويمكن أنها كانت قرية ارستقراطية ذات أملاك كبيرة .

القاطورة

وهو عبارة عن مجموعه خرائب تقع إلى يسار الذاهب إلى قلعة سمعان بعد دارة عزّة ، بالقرب من خرائب ست الروم ، توجد بالقرب منه فيللا وبعض البقايا المعمارية ، وتضم مَقبرة رومانية ومجموعة من الأعمدة الجنائزية والمدافن المقطوعة بالصخر ، على بعضها صور وكتابات وذلك في الوادي المعروف بوادي القاطورة .

باسوفان

قرية وخرائب في جبل سمعان على بعد ٣ كم إلى الشمال الشرقي من قلعة سمعان . ذكرها دوسو ولامينس Lammens ، تضم الخرائب حصناً صغيراً وكنيسة من نوع البازيليكا وهي مكرسة للقديس فوكاس يعود تاريخها ٤٩١/٤٩٢ م ذات ثلاثة أروقة وسبعة مداخل ، وهي مسكونة اليوم من قبل بعض الأسر التي تعمل بالزراعة .

تقلة

قرية تشرف على سهل القاطورة قام فيها مجتمع زراعي بسيط. تأسست كنيستها في منتصف القرن الخامس ، أبنيتها موحدة ومتواضعة وفيها معصرتان للزيت إحداها عامة أما الثانية فتعود للكنيسة .

خراب شمس

قرية هامة أقيمت على المنحدرات الجنوبية لأحد التلال بالقرب من أحد المنخفضات الهامة .

الموقع قديم جداً ، مبانيه مخربة ، تضم مدافن وأعتاباً وفيللات من العصر البيزنطي إلى جانب كنيسة من القرن السادس وأخرى من القرن الخامس ، هناك كنيسة من القرن السادس منعزلة فوق القمة ربما كانت رهبانية .

ترمانين

قرية كبيرة تقع على بعد ٦ كم إلى الشمال الشرقي من قرية الدانا الشمالية ، وهي تابعة من الناحية الإدارية إلى محافظة إدلب ، إلا أن معظم علاقاتها الاقتصادية والاجتماعية مع حلب ، نما عدد سكانها نمواً ملحوظاً في الآونة الأخيرة وبالتالي توسعت القرية نفسها عمرانياً . يعمل كثير من أهل ترمانين في مدينة حلب

بالتجارة أو في وظائف الدولة . وقد برز منهم شخصيات كثيرة تقلدت مراكز عالية في الدولة .

إلى الشمال من القرية لاتزال بقايا دير ترمانين قائمة وتسمى أحياناً قرية الدير ، ذكره كثير من الرحالة الأجانب ودرس من قبل دو فوجه Vogué ، ربما كان هذا الدير أحد المؤسسات الدينية التابعة لدير تل عاده (تلعادة) وقد يكون ذكره قد ورد في قائمة الأديرة الخاصة بأصحاب الطبيعة الواحدة .

يتألف الدير من بناء كبير ربما كان عبارة عن نزل من طابقين له ساحة مرصوفة بحجارة كبيرة ، فيها حوضان كبيران . وكانت هناك كنيسة من نوع البازيليكا ذات أعمدة تعود إلى القرن السادس الميلادي ، بجانب النزل ، ولكن بناءها مندثر الآن

قامت السلطات الإدارية في محافظة إدلب بإحداث بلدية بالقرية وسهرت على ربط البلدة بشبكة من الطرق الداخلية وبشبكة من المياه ، كما قامت وزارة الكهرباء بربطها بشبكة الكهرباء العامة ، أما وزارة التربية فزودتها بالمدارس الابتدائية الاعدادية والثانوية .

تل عقبرين (قرية وخرائب) / محافظة ادلب

بعد مرور الزائر بالرصيف الروماني يمر بعد قليل بقرية تسمى

بقرية تلعقبرين ، وهو موقع قديم سكنه الإنسان منذ العهود الرومانية ، لا تزال توجد فيه بعض البقايا الأثرية والكتابات اليونانية ، ومن بين خرائب تل عقبرين يلاحظ المرء وجود بناء مؤلف من أربعة طوابق ذي نوافذ عديدة عليها حليات جميلة . وفوق هضبة كبيرة يوجد بناء ذو نوافذ مزدوجة يبلغ ارتفاعه نحو ١٣ قدماً وإلى الجنوب الشرقي توجد كنيسة جدارها الجنوبي الصخر وعليه كتابة سريانية . أقام الافرنج بتلعقبرين حصناً ، وعند هذه القرية حدثت الموقعة الحاسمة المعروفة بموقعة « سهل الدم » التي انتصر فيها العرب المسلمون على الافرنج الصليبيين انتصاراً حاسماً . كما يقوم اليوم فيها خان صغير يعود إلى العهود العربية الاسلامية . وقد قامت مؤخراً مديرية الآثار والمتاحف بحلب بإجراء ترميمات لسطحه وبعض جدرانه . قرية تلعقبرين اليوم مزدهرة وبها المدارس والمياه والكهرباء ، وهي تابعة إدارياً لمحافظة إدلب ، إلا أن لها علاقات وثيقة مع حلب .

سرمدا (قرية وخرائب) / محافظة إدلب

قرية كبيرة تقع في الطرف الغربي من سهل الدانا على بعد ٦ كم إلى الشمال الغربي من قرية الدانا الشمالية ، ظلت بقايا آثار العصور الوسطى قائمة في القرية حتى عام ١٩٣٦ . ولكن بعد ذلك ذهبت بسبب توسع القرية ، وإلى الشمال من القرية كانت

تقوم قلعة تعرف بقلعة سرمدا في العصور الوسطى (في فترة الحروب الصليبية) تعرف الآن بدير الحصن . تشتهر سرمدا بعمودها المزدوج الذي هو عبارة عن شارة تذكارية لمدفن من العصر الروماني يعود إلى عام ١٣٢ م ، كما تشير الكتابة الموجودة عليه . وتوجد هناك عدة مدافن حول مدفن العمود المزدوج .

تطورت القرية وتوسعت في الأونة الأخيرة لغيرها من المدن والبلدان والقرى السورية وازداد عدد سكانها . في القرية اليوم عدة مدارس للبنين والبنات ، وفيها كهرباء وماء وسوق ووسائل الحياة اليومية الأخرى . تتبع قرية سرمدا من الناحية الادارية إلى محافظة إدلب ، إلا أن لها علاقات وثيقة مع مدينة حلب .

الطريق الروماني / محافظة ادلب

هو طريق قديم مرصوف بالحجارة الكبيرة كان يصل بين أنطاكية والفرات على حد قول بعض الباحثين ، يذكر وصفي زكريا الذي زار الطريق في مطلع الثلاثينات من هذا القرن بالقرب من تل عقبرين ، أنه شاهد قسماً من الطريق طوله نحو ١٢٠٠ م مبلط بأحجار ضخمة تبلغ أطوال بعضها ٢ × ١,٢ م ، وعرض الطريق ٦ أمتار ، يعود تاريخ الطريق إلى القرن الثاني الميلادي . قامت مديرية الآثار والمتاحف بترميمه قبل نيف وعشرين سنة وهو اليوم مهدد بخطر التخريب سيما وأن السكن العشوائي بدأ

يقوم بجواره ، ومن الضروري التفكير بوضع طريقة للمحافظة عليه . يتبع الطريق من الناحية الادارية إلى محافظة إدلب .

الاتارب (الاثارب) / محافظة إدلب

قرية كبيرة في سهل قنسرين كانت تقع على الطريق الروماني القديم الذي كان يصل بين أنطاكية وحلب وقنسرين Chalcis والفرات ؛ أقام الأفرنج الصليبيون في العصور الوسطى بها قلعة بعد اغتصابها لكن نور الدين زنكي استردها منهم ، وظل العرب والافرنج يتعاورونها إلى أن استقر أمرها إلى العرب . يقوم إلى جانب القرية اليوم تل أثري لم يبق منه إلا القليل بسبب استعمال السكان لترابه في صناعة قوالب اللبن التي تستخدم في البناء ولتوريق بيوتهم . والأتارب اليوم مركز ناحية تابعة لمحافظة إدلب ، وهي بلدة كبيرة وفيها مدرسة ثانوية ومدارس اعدادية وابتدائية ، ترتبط بشبكة الكهرباء وفيها شبكة مياه . يعمل أهلها بالزراعة ووظائف الدولة .

دير تل عادة (تلعادة) (قرية وخرائب) / محافظة إدلب

قرية وخرائب تقع في الطرف الشمالي لسهل الدانا عند قدم جبل الشيخ بركات . كان الدير عبارة عن رهبانية كبيرة من أصحاب الطبيعة الواحدة ، وقد تأسس حوالي منتصف القرن

الرابع الميلادي من قبل الناسكين أميانوس Ammianos وأوديب Eudèbe ، وأصبح في القرن السادس مركزاً كبيراً لأصحاب الطبيعة الواحدة ، استمر الدير في ظل الحكم العربي يمارس أعماله حتى القرن العاشر ، وهذا ما يؤكد احترام العرب المسلمين لأصحاب الديانات الأخرى عند فتحهم هذه البلاد وضمان حرية العبادة لهم .

الدانا الشمالية (قرية وخرائب) / محافظة إدلب

عند قرية تلعقبرين يتجه الزائر يميناً باتجاه قلعة سمعان حيث يمر بعد أقل من ١ كم بقرية الدانا الشمالية ، تضم هذه القرية بقايا كنيسة ومجموعة من المدافن المقطوعة بالصخر التي يوجد فوقها بناء غريب يقوم فوق أربعة أعمدة أيونيه . وقد كان فوقها سقف هرمي مهدم الآن وفي المنطقة التي تحيط بالبناء ، تمكن « دوفوجه » عام ١٨٦٠ من التعرف على أن تاريخ انشائه في الثالث من آذار عام ٣٢٤ م من خلال كتابة تدشينيه . بنيت الدانا الحديثة فوق أنقاض الدانا القديمة ، ولكن لايزال هناك عدد من الآثار الهامة . وفي الدانا يمر الطريق القديم الذي يتفرع عن طريق أنطاكية حلب ، مفترق قبل باب الهوا حيث يتابع سيره إلى حلب مسايراً المرتفعات الصخرية قليلاً لجبل سمعان ماراً بالدانا وترمانين ، ديراما ن ، أرحاب (الآن خربه) ، توكات ، عين جارا

(الان خربه) كفر سبيل .

باب الهوا . (خرائب) / محافظة ادلب

بعد اجتياز مركز الحدود السورية باتجاه تركيا وقبل أن يصل المرء إلى الحدود التركية يمر بقوس حجرية تعرف باسم « باب الهوا » يعتقد أنها بنيت في العهد الروماني وقد رممت في العهد العثماني بعد خراب ، ولا نعرف سبب ذلك . وأغلب الظن أنها قوس تذكارية للنصر . يحمل مركز الحدود السوري اسم مركز باب الهوا وقد قامت الدولة مؤخراً ببناء مجمع كبير في هذا المركز يقدم الخدمات لكافة القادمين والمغادرين . فهناك مركز للهجرة والجوازات ومركز للجمارك ومقصف وفندق وحوانيت للبيع والشراء ، وعنده تتفرع الطرق لتذهب إلى دمشق أو حلب .

قصر البنات (خرائب) / محافظة ادلب

بعد باب الهوا بقليل وإلى يمين الطريق الدولي الذاهب إلى أوروبا عبر تركيا وقبل الوصول إلى الحدود التركية توجد خرائب تسمى « قصر البنات » ، بني في العهد البيزنطي على حد تقدير علماء الآثار ، تقدر مساحته بنحو ٥٥٠٠ م^{٢} ، تهدمت بعض أجزائه وخاصة أجزاء السور في العهد العثماني ، كان البناء يحتوي على قاعتين كبيرتين وعدة غرف وحمامات وأعمدة وتوجد

زخارف معمارية رائعة ، فظن أنه كان نزلاً للمسافرين . هناك عدة مواضع بالقطر تحمل هذا الاسم ، فهناك موضع في شمال الدانا الجنوبية يدعى بقصر البنـات ، وهنـاك بنـاء مـن العهـد الاسلامي في الرقة يدعى بقصر البنات أيضاً وغيرهما .

وإذا أراد الزائر أن يشاهد الآبده المعمارية الجميلة في قلب لوزه فعليه أن يتابع سيره بعد بلدة سرمدا باتجاه بلدة حارم ، وعليه أن يصعد مع الطريق إلى أن يصل قرية تعرف اليوم برأس الحصن وكانت تسمى سابقاً « **باشمشلي** » تضم هذه القرية عدة خرائب تبلغ مساحتها نحو ٢٥٠٠ م٢ تحوي كنيستين وجدراناً أثرية من العهد البيزنطي كما توجد بعض بقايا الآثار الاسلامية ومن أهمها قبر اسلامي عليه كتابة كوفية ، وهو اليوم مقام يسميه أهل القرية بمقام الشيخ محمد خليل الصادق وهو مبني في القرن الثاني عشر الميلادي ، ويدل هذا على أن القرية سكنت في العهد الأيوبي . وقد شهدت كثير من المدن والقرى في هذه النواحي انتعاشاً في ذلك العهد .

ومن « رأس الحصن » يمكن للمرء أن يشاهد العديد مـن الخرائب التي لاتزال صامدة تتحدى عوادي الزمن ، ولعله في مستقبل الأيام أن تنتعش المنطقة اقتصادياً وعمرانياً تمتد إلى تلك الخرائب يد العناية والرعايـة ، مـن تـلك الخرائب : باقرحـا ،

الخطيب ، تيزين ، قصر ابليسو ، بابوطا ، بابيسقا ، دركيتا وغيرها .

من الملاحظ أن كثيراً من هذه الخرائب قد أعيد استيطانها في أواخر العصر العثماني دون إضافات ملموسة إلى عمائرها واقتصر السكان على إعادة توظيف الخرائب ، ولكن في وظائف تختلف عن الوظائف الأولى ، فقسّمت القاعات الكبيرة إلى غرف تستعمل في السكن أو لتكون مستودعات ، مستخدمين في ذلك الحجارة القديمة ومن أمثلة ذلك باشمشلي ، كفردريان ، كفر عروق ، داحس ، وغيرها .

كنيسة قلب لوزه

تقع هذه الكنيسة الرائعة الجمال في جبل الأعلى وتبلغ أطوالها ٨٢ قدماً طولاً و ٤٩ قدماً عرضاً ، وتقسم إلى ثلاثة أروقة بواسطة صفين من الأعمة وثلاث أقواس ، وهي بذلك من نوع الكنائس ذات الأعمدة والأقواس التي يمكن مقارنتها بتلك الموجودة في بلدة رويحه ، لها مجاز يؤدي إلى ضمنها ، ويحف بها من كل جانب برج ذو طابقين يفصلهما قوس عريضة ولها وسادة دائرية Chevet ومجموعتان من الأعمدة العلوية البارزة وليس لها افريز (كورنيش) وسطي ، الوسادة والحنيّة تشبهان في التصميم والتزيين تلك الموجودة في بازيليكا القديس سمعان . توجد في

السقف الذي تغطي صحن الكنيسة نوافذ بينها أعمدة صغيرة تدعم الكونسولات الخشبية ، وكان منور الكنيسة (الجزء المرتفع) مغطّى بالاخشاب ، أما الرواقان الجانبيان فتغطيهما رقائق من الحجر الكلسي تبلغ طول الواحدة فيها ١٦ قدماً مشكلة كورنيشاً خارجياً ، ولا يزال هناك جزء من السقف يمكن مشاهدته في الرواق الجنوبي . أما بالنسبة لتاريخ هذه الكنيسة الرائعة فيمكن ردها إلى منتصف القرن السادس الميلادي . قامت مديرية الآثار بإجراء بعض الترميمات في بناء الكنيسة وفي خطتها متابعة تلك الترميمات الصيانية .

يحيط بكنيسة قلب لوزه كثير من الخرائب التي تنتشر في جبلي باريشا والأعلى يمكن الوصول إلى بعضها ، لقد شقت كثير من الطرق الحديثة ، ولكن البعض الآخر لايزال بعيداً عن الطرق العامة ، وتقوم إلى جوارها قرية حديثة .

عين دارا

يقع تل عين دارا على بعد ٤٠ كم إلى الشمال الغربي من مدينة حلب على الضفة اليسرى لنهر عفرين ، أدّت التنقيبات الأثرية التي جرت حتى الآن إلى التعرف على عدة سويات سكنية تغطي الفترة التاريخية الممتدة من القرن العاشر قبل الميلاد حتى القرن السادس عشر الميلادي وهناك سويات تنتظر التعرف عليها حين تنقب .

كان اكتشاف المصادفة عام ١٩٥٤ هو الدافع إلى إجراء تنقيبات أثرية منهجية منذ عام ١٩٥٤ . يمكن الوصول إلى عين دارا بطريقين إما عن طريق قلعة سمعان أو عن طريق حلب عفرين .

أدى اكتشاف المصادفة الذي أشرنا إليه سابقاً إلى تركيز التنقيب الأثري في المنطقة المرتفعة ، وقد أظهرت تلك التنقيبات عدة سويات من أهمها : السوية العربية الاسلامية حيث كانت تقوم مستوطنة صغيرة في عين دارا في ذلك العهد ، السوية الثانية وتعود إلى الفترة الواقعة ما بين القرن التاسع إلى القرن الثالث عشر ؛ السوية الثالثة وتعود إلى العهدين العباسي والأموي ، السوية الرابعة هي السوية الهلنيسة السلوقية ونلاحظ هنا غياب العصر الروماني ، السوية الخامسة التي تمتد من القرن السابع إلى القرن الرابع قبل الميلاد ويبدو أن هذه السوية هي استمرار للسوية التي سبقتها ، السوية السادسة وهي السوية التي تضم بقايا المعبد الذي يقع في الطرف الشمالي الغربي من المرتفع وقد أقيم بناؤه على طراز بيت هيلاني (حيلاني) وقد ساد هذا الطراز في شمال سوريا في الفترة ما بين (١٢٠٠ — ٧٠٠ ق . م) .

إلى جانب البقايا المعمارية عثر على منحوتات أهمها نصب للربة عشتار وبعض الأنصاب الأخرى التي عثر عليها داخل المعبد ولقى صغيرة من النقود والحلي وغيرها . عموماً يمكن القول إن

عين دارا كانت إحدى الامارات الآرامية التي تأسست في العصر الحديدي عقب هجوم موجات شعوب البحر المدمر على شمال سوريا وجنوب الأناضول ، وعند مقارنة عمارة عين دارا بعمارة المواقع الآرامية المعاصرة في شمال سوريا يتضح لنا تاريخ ذلك الموقع الهام .

السلطات الأثرية وقلعة سمعان وغيرها من المواقع الأثرية

أحدثت السلطات الوطنية مديرية عامة للآثار ، أخذت على عاتقها الاهتمام بالتراث الحضاري في البلاد ، كما أصدرت قانوناً وطنياً لحماية ذلك التراث . ومن بين الآثار التاريخية التي لقيت عناية سلطات البلاد الأثرية قلعة سمعان التاريخية فأخذت تخصص سنوياً اعتماداً مناسباً لترميم القلعة وصيانتها ، ومن أهم الأعمال التي تمت في قلعة سمعان ترميم الواجهة الرئيسية للكنيسة الكبرى ، وترميم الجدران الأخرى المتصدعة فيها ، كما تمت ترميمات في الأسوار والمعمودية وقوس النصر . كما رفعت الأنقاض التي خلفتها السنون بعد أن أخليت من السكان الذين كانوا يقيمون فيها ومنعت العبث بحجارتها ، كما أحدثت مركزاً للمراقبة يقوم على الاشراف المستمر لحمايتها وفتحتها للزيارة . وفي سبيل التعريف بها حولتها إلى مركز سياحي . وقد ترتب على ذلك إقامة مقصف سياحي يقدم الخدمات للزائرين السياح ، كما سعت لدى وزارة المواصلات

لتعبيد الطرق المؤدية إليها ، هذا إلى جانب إقامة استراحة للضيوف والزائرين وزودتها بالماء والكهرباء . وأعمال المديرية العامة للآثار والمتاحف بالجمهورية العربية السورية مستمرة في قلعة سمعان وهي بادية للعيان يمكن أن يلمسها الزائر عند زيارته للقلعة . كما تقوم بعثة أثرية بالتنقيب عن الآثار بالقلعة بإشراف مديرية الآثار ، فقد عثرت بنتيجة تلك التنقيبات على بقايا معمارية وعلى لقى كثيرة من النقود البيزنطية والعربية الإسلامية كما عثر على بقايا فخارية جميلة تعود إلى العهود العربية الاسلامية .

هذا وتقوم المديرية العامة للآثار برعاية سائر الآثار بالمنطقة فتنقب وترمم فيها باستمرار كذلك تشرف على التنقيبات الأثرية الأجنبية التي تعمل في المنطقة .

وفي الختام يمكن القول إن قلعة سمعان تشكل نموذجاً معمارياً فريداً يدل على ما وصلت إليه العمارة السورية في القرن السادس الميلادي من تقدم وثراء ، ولا غنى لطلاب العمارة والفن الذين يدرسون الأنماط المعمارية السورية من زيارة القلعة والوقوف على هندستها وروعة العناصر الزخرفية المعمارية فيها .

والأمل معقود على الازدهار الاقتصادي المرتقب في المنطقة الشمالية من سوريا ، بعد انجاز أعمال استصلاح الأراضي التي سترويها مياه سد الفرات في أن يرتد ذلك الازدهار على الحياة

الثقافية والاقتصادية في منطقة قلعة سمعان بحيث تعود الحياة الاقتصادية والثقافية إلى سابق عهدها ، فتنشط الزراعة والسياحة وتمتد الطرق المعبدة إلى كافة المناطق الأثرية التي تحيط بقلعة سمعان لتكتمل الصورة في ذهن الزائر والدارس .

المراجـع

آ ـ المراجع العربية :

١ ـ الغزي ، كامل بن حسين مصطفى بالي :

نهر الذهب في تاريخ حلب ، الجزء الأول ، المطبعة المارونية ، حلب .

٢ ـ رباط جبرائيل :

جولة علمية في قلعة سمعان ، مجلة العاديات السورية ، جمعية العاديات ، حلب ١٩٣١ .

٣ ـ الهروي ، أبي الحسن علي بن أبي بكر :

كتاب الإشارات إلى معرفة الزيارات .

عني بنشره وتحقيقه جانين سورديل ـ طومين ، المعهد الفرنسي بدمشق للدراسات العربية ، دمشق ١٩٥٣ .

٤ ـ الصواف صبحي :

قلعة سمعان روعة وجمال ، دليل سياحي ، حلب ١٩٦١ .

٥ ـ حميده عبد الرحمن :

مطبوعات وزارة الثقافة والارشاد القومي ، دمشق ، سلسلة بلادنا (٥) .

منشورات الفن الحديث العالمي .
٦ ـ حتى فيليب :
تاريخ سوريا ولبنان وفلسطين جـ ١ ١٩٥٦ .
٧ ـ شعث شوقي :
قلعة سمعان دليل أثري تاريخي ، مطبوعات المديرية العامة للآثار والمتاحف ، ١٩٨٣ .

ب ـ المراجع الأجنبية :

8 — MATTERN J.: A travers les villes mortes de haute syrie 2 edition, beyrouth, 1944.

9 — DELEHAYE H.: Les saints stylites, Bruxelles, 1932.

10 — KRENKER DANIEL: Die walfahrtskirohe, des Simeon Stylites in Kalat Siman. Berlin. 1939.

11 — de VOGUE Marquis: Syrie centrale, architecture civil et religieuse de ier au vii siecle. Paris 1865 — 1877. Prinston university.

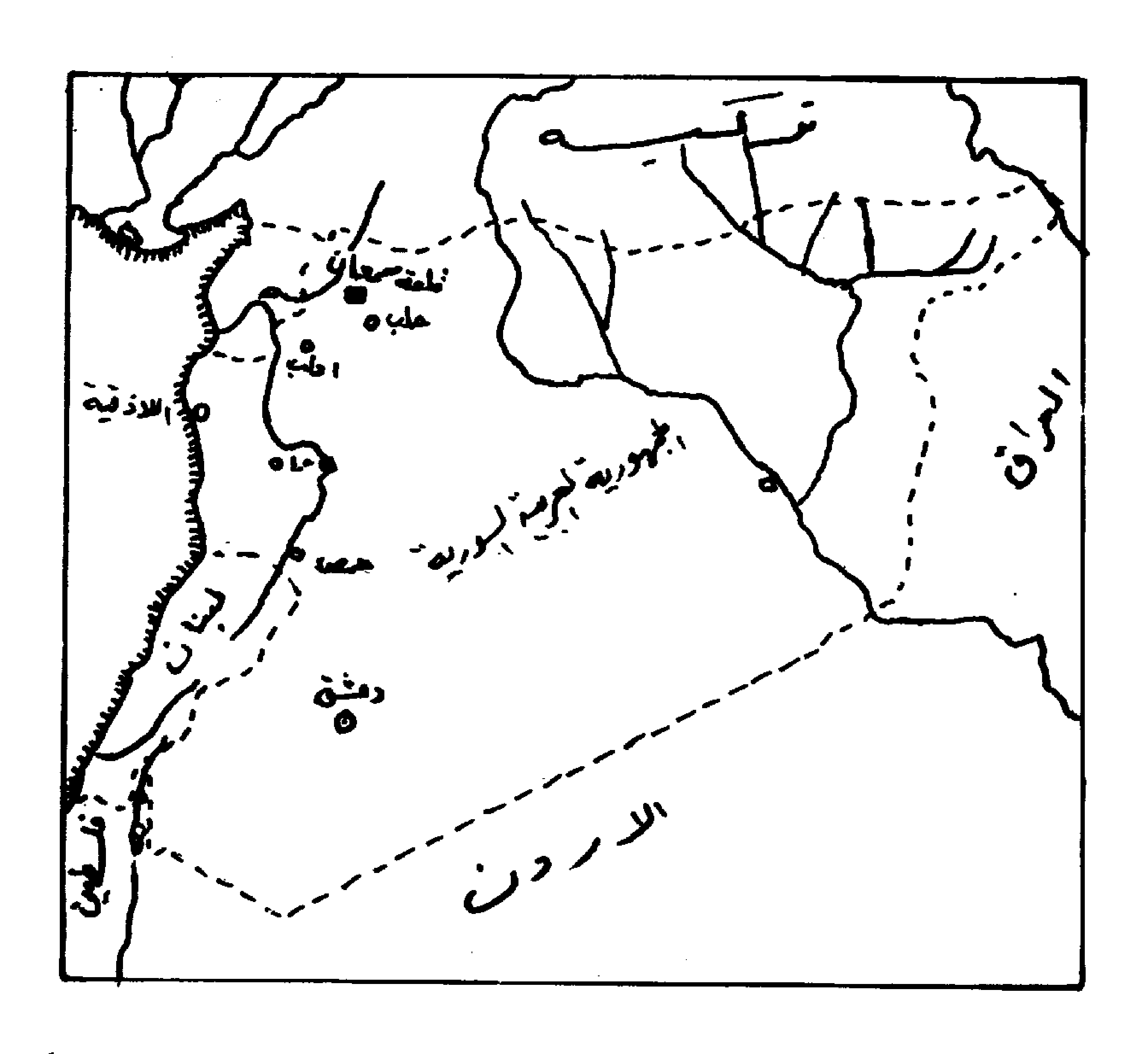
12 — LASSUS J.: Sanctuaires Chretien de Syrie. Paris 1947.

13 — BUTLER H.G: Ancient Architecture in Syria, publication of prinston university archaeological expedition to Syria in 1904 — 1905, D, IIs. B,P.6, Djebel Siman. Leyden, 1920.

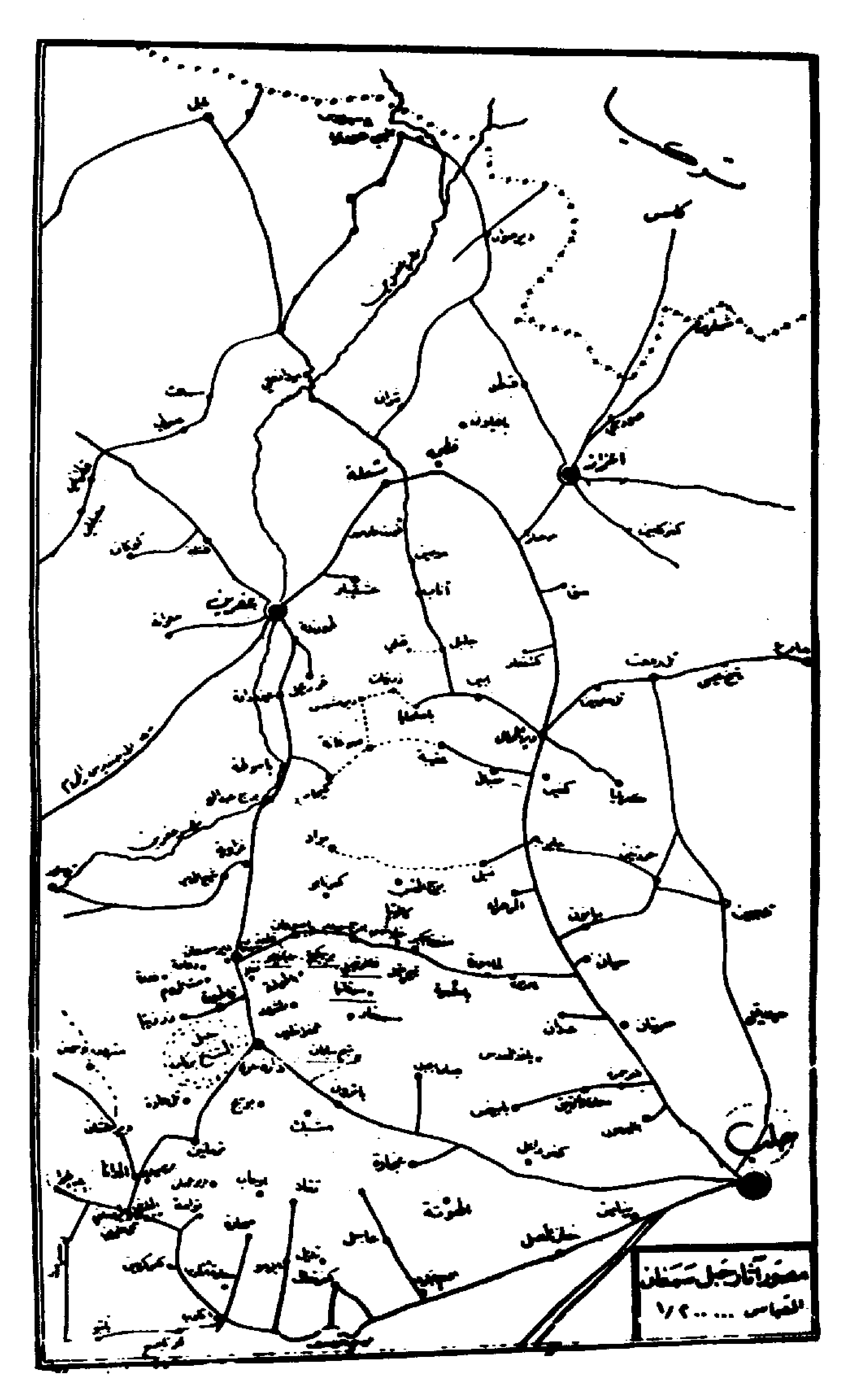
14 — Early Churches in Syria Prinston 1920.

15 — PENA I., PASCAL C, FERNANDEZ R.,: les stylites syriens, publications du S.B. F, coll. minor no.16.

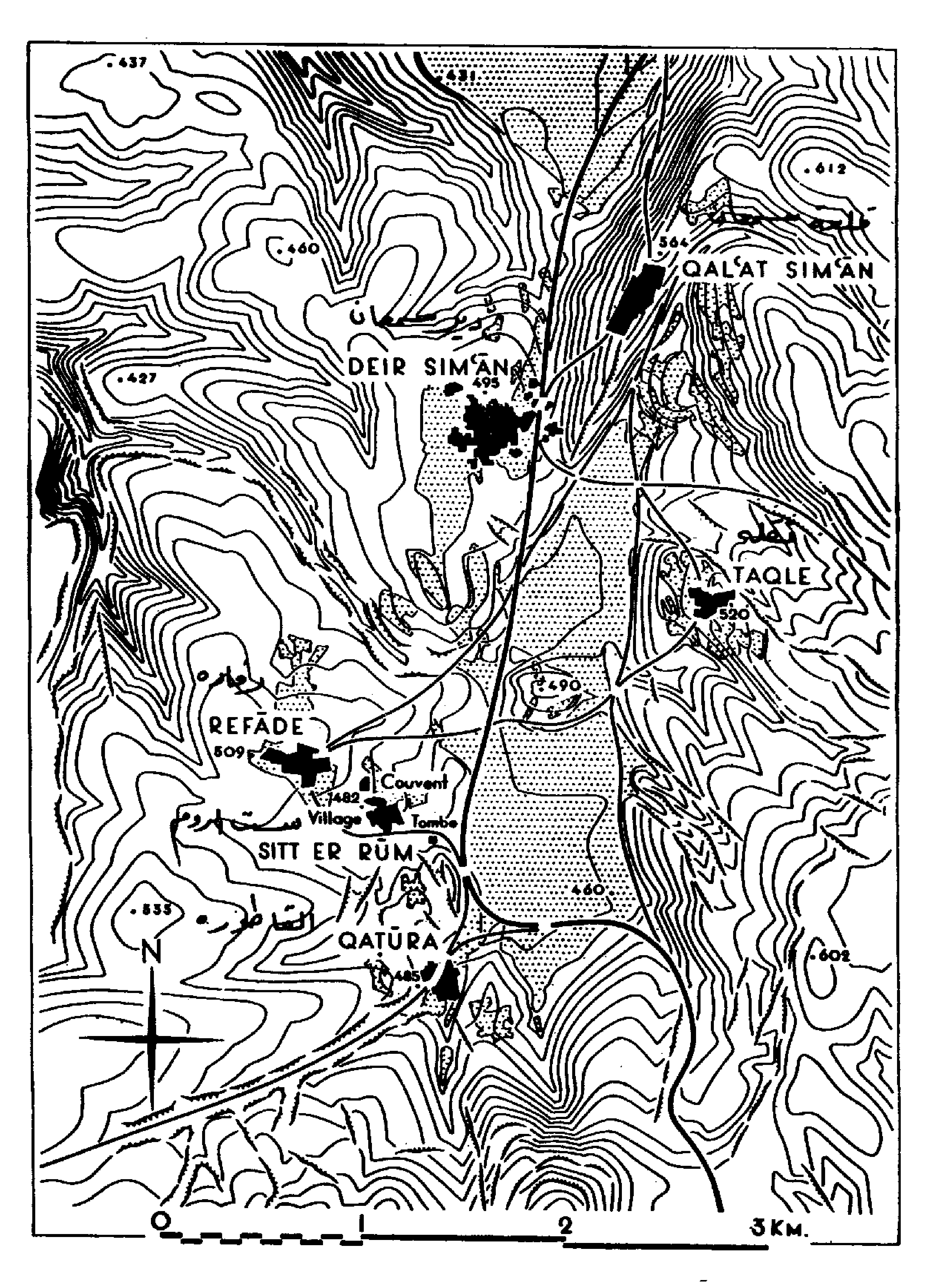
16 — TCHALENKO G.: villages antiques de la Syrie du Nord, I,II,III, Paris 1953 — 1954 — 1958.
17 — Encyclopaedia Britanica: (1970) 20 — 549 b,21 — 333.
18 — Ebla To Damascus, 1985.
19 — The Middle East Guide, 1966.



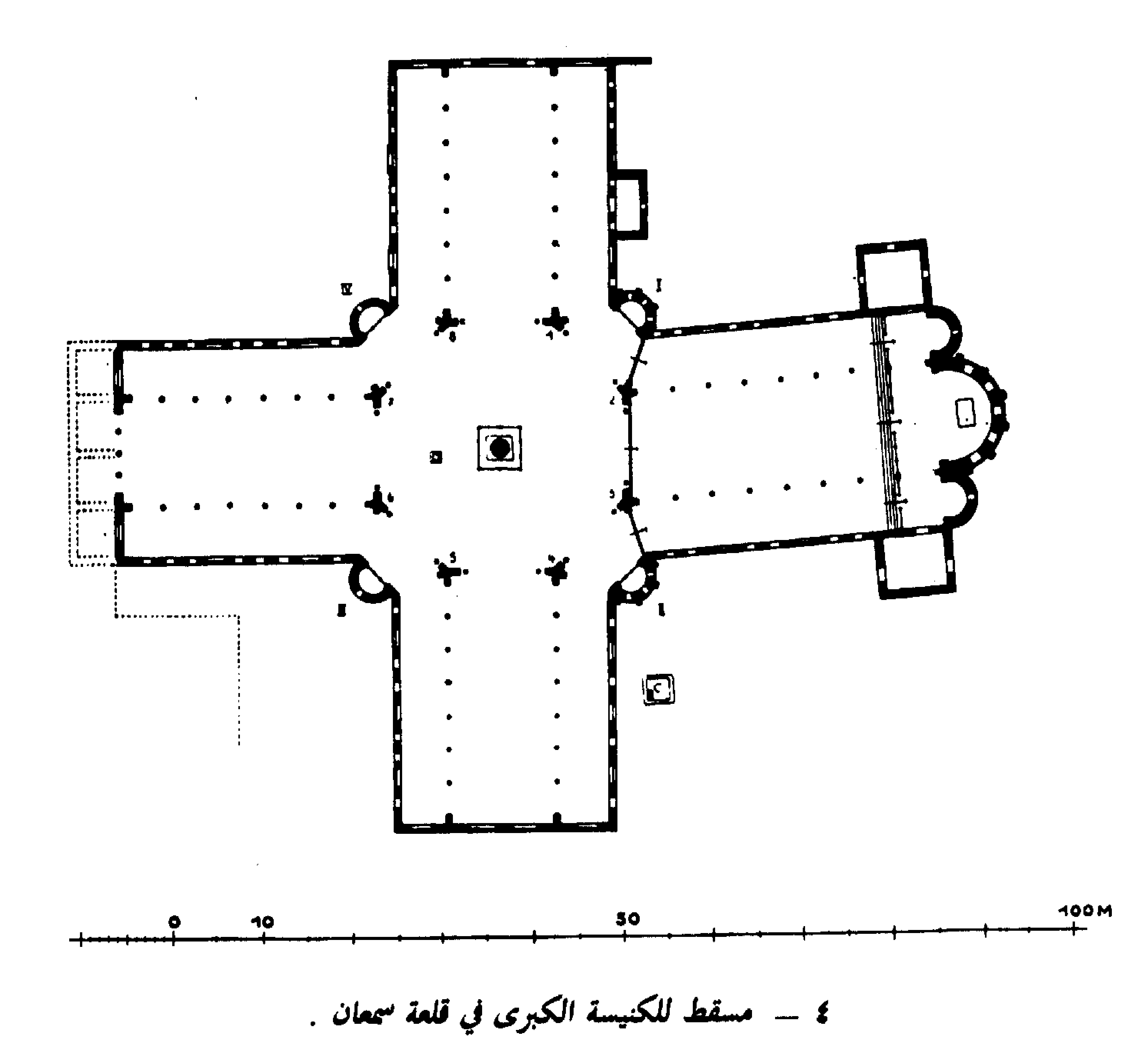
١ ــ مصور للجمهورية العربية السوريه يظهر عليه موقع قلعة سمعان .



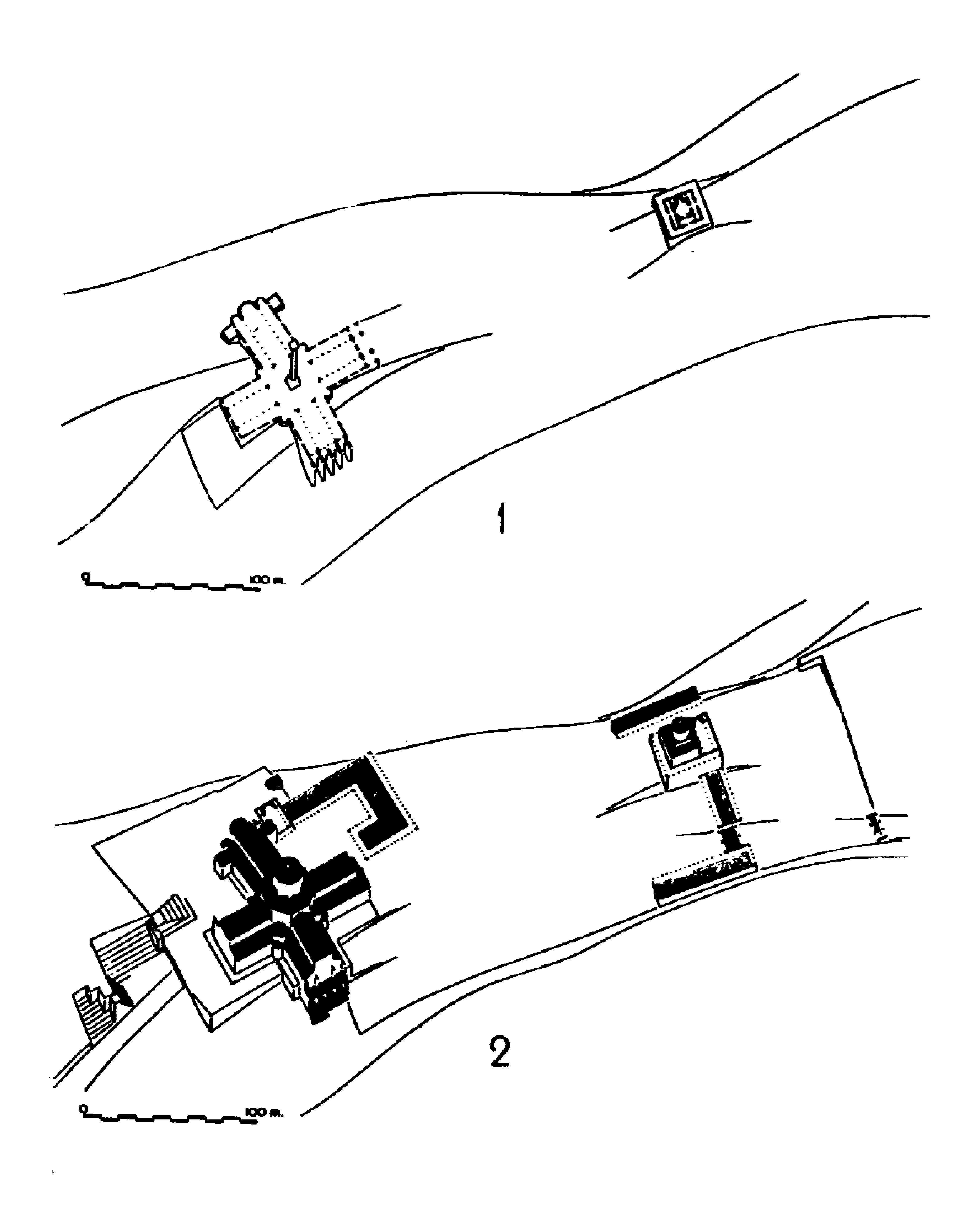
٢ — مصور للمناطق المحيطة بالقلعة وأهم الخرائب حولها .



٣ ـ طرق المواصلات والمواقع القديمة في سهل القاطورة .

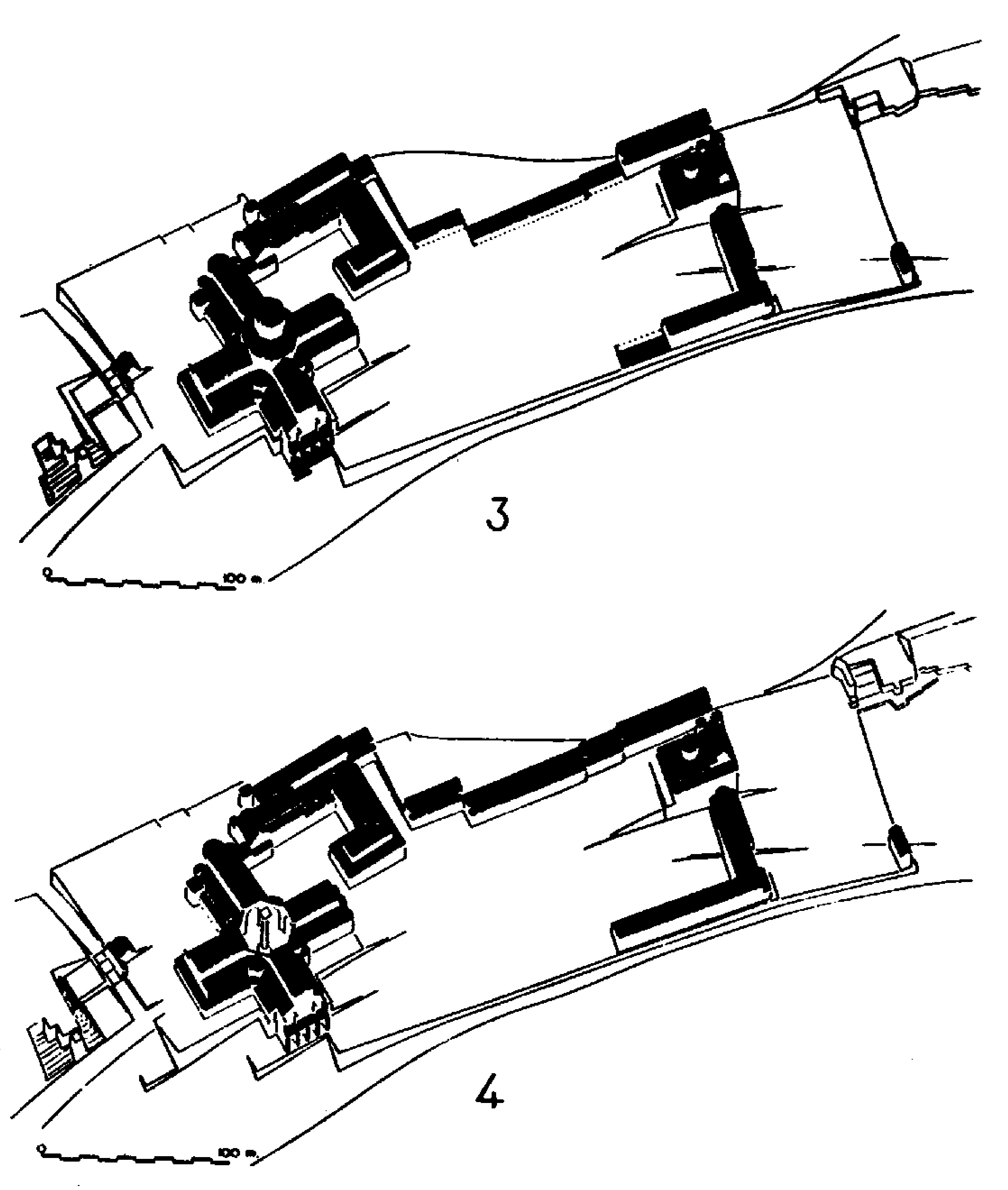


٤ — مسقط للكنيسة الكبرى في قلعة سمعان .

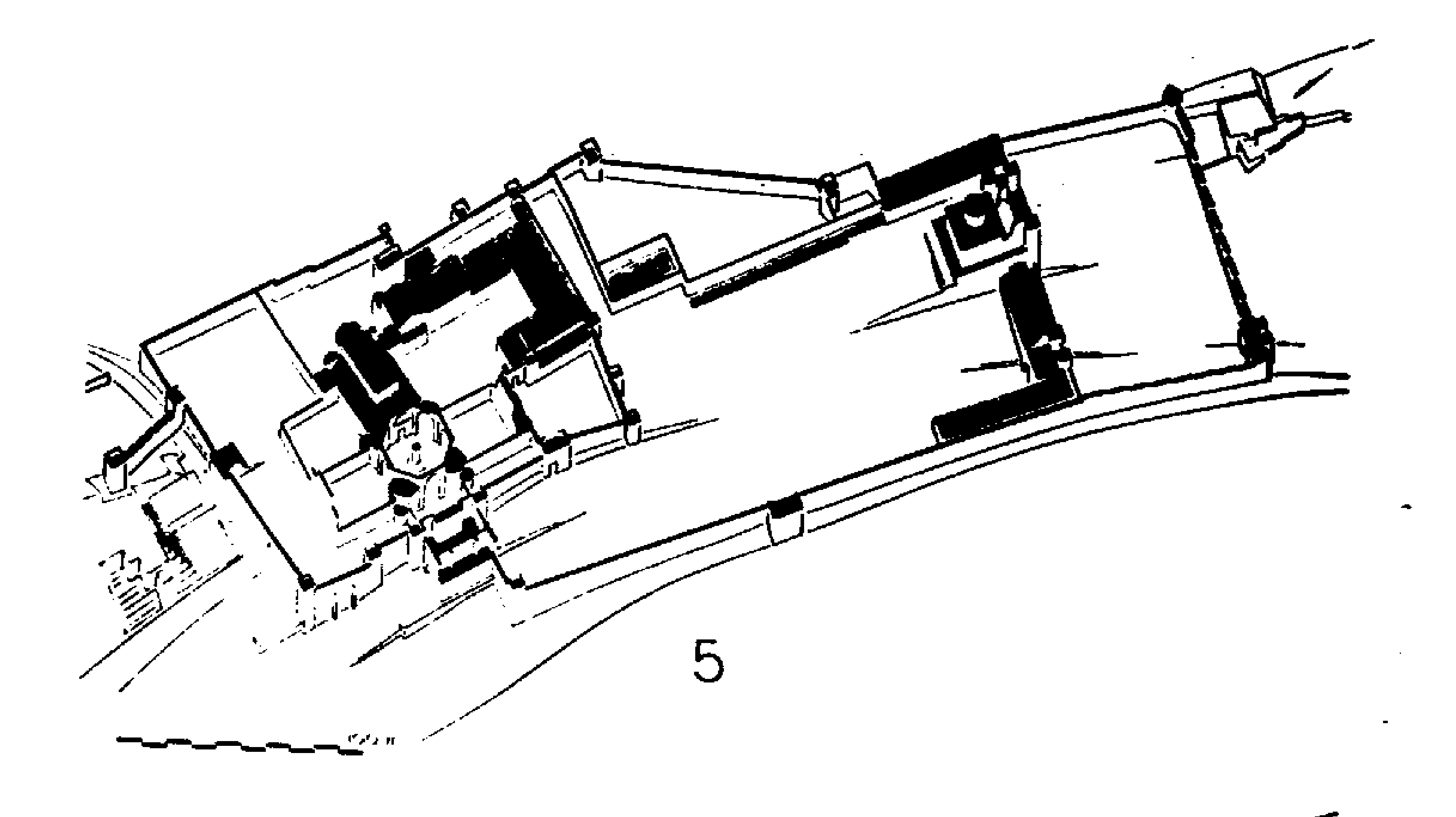


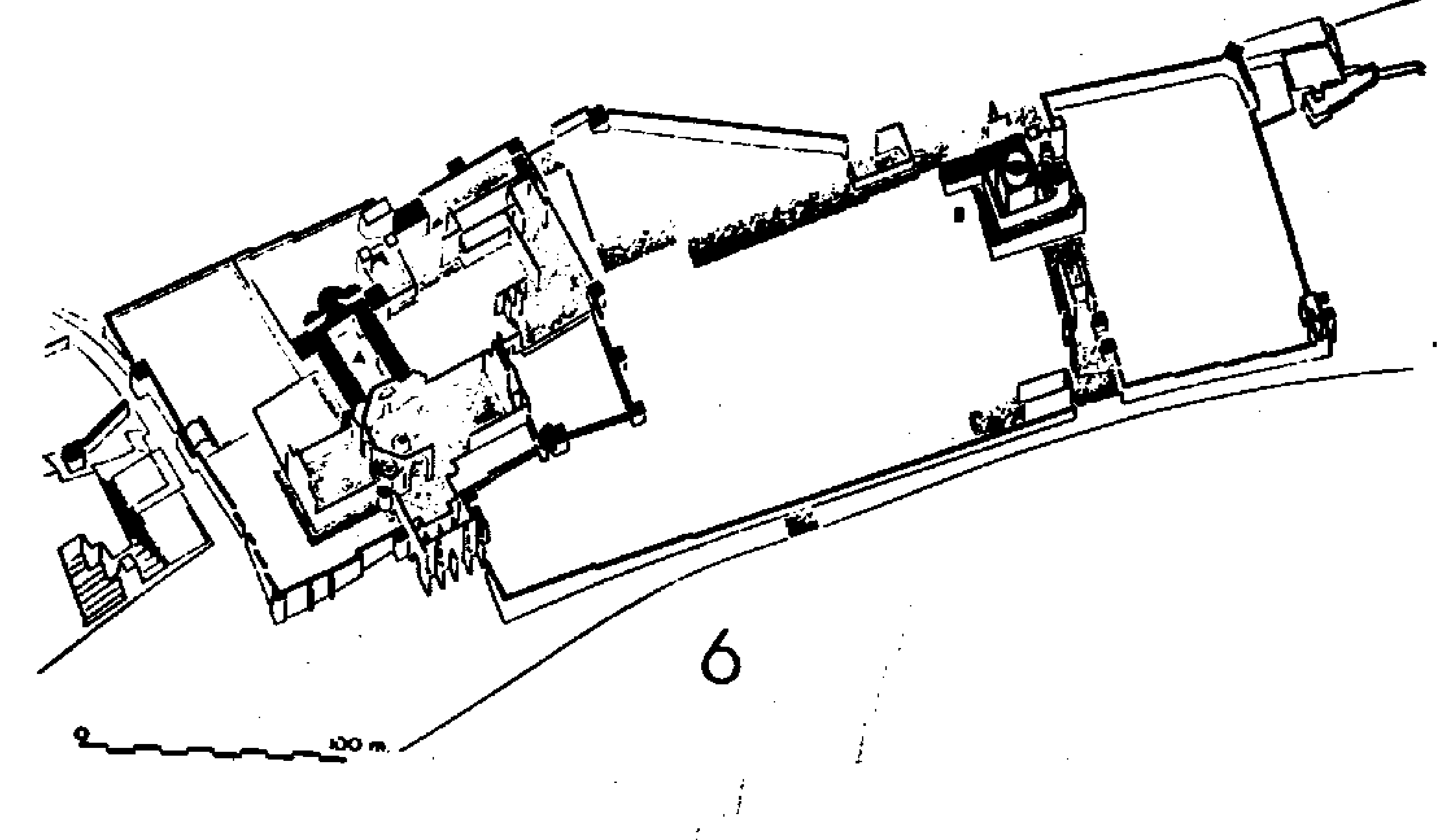
١ ــ مخطط للكنيسة الكبرى نحو عام ٤٧٥ م .

٢ ــ مراحل بناء الكنيسة والإضافات في نهاية القرن الخامس الميلادي .



٦ — ٣ — تطور بناء الإضافات
الملحقة بالكنيسة الكبرى قبل الهزة
الأرضية ٥٢٦ — ٥٢٨ م .
٤ — القلعة زمن إيفاغريوس نحو عام ٥٦٠ م .

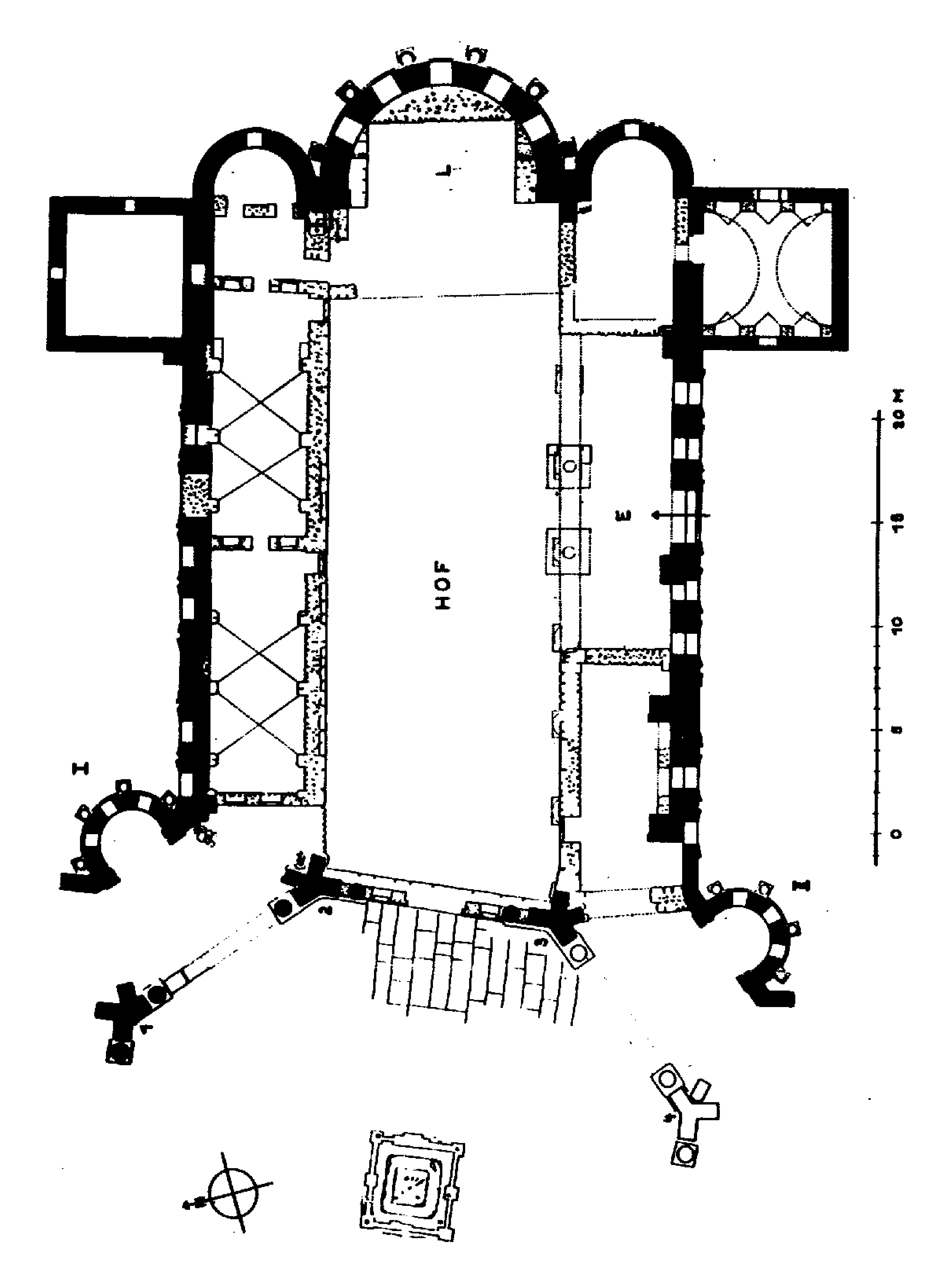




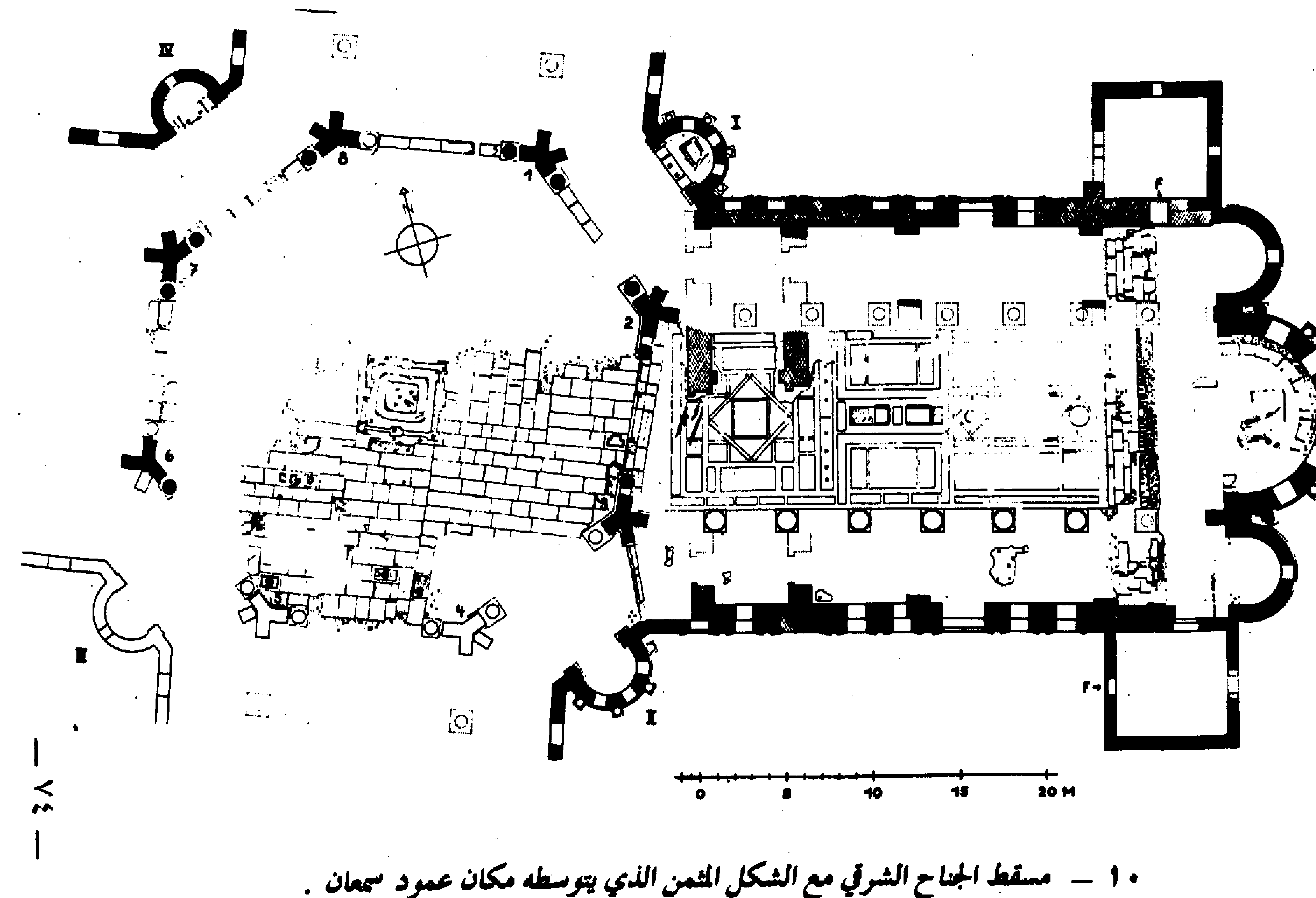
٧ ـ ٥ ـ القلعة في العصور الوسطى في نهاية القرن
العاشر الميلادي .

٦ ـ حالة القلعة بعد تهدمها في المنطقة (A) سكن المتنفذ الأول
(المحلي) وفي المنطقة (B) سكن المتنفذ الثاني (المحلي) .

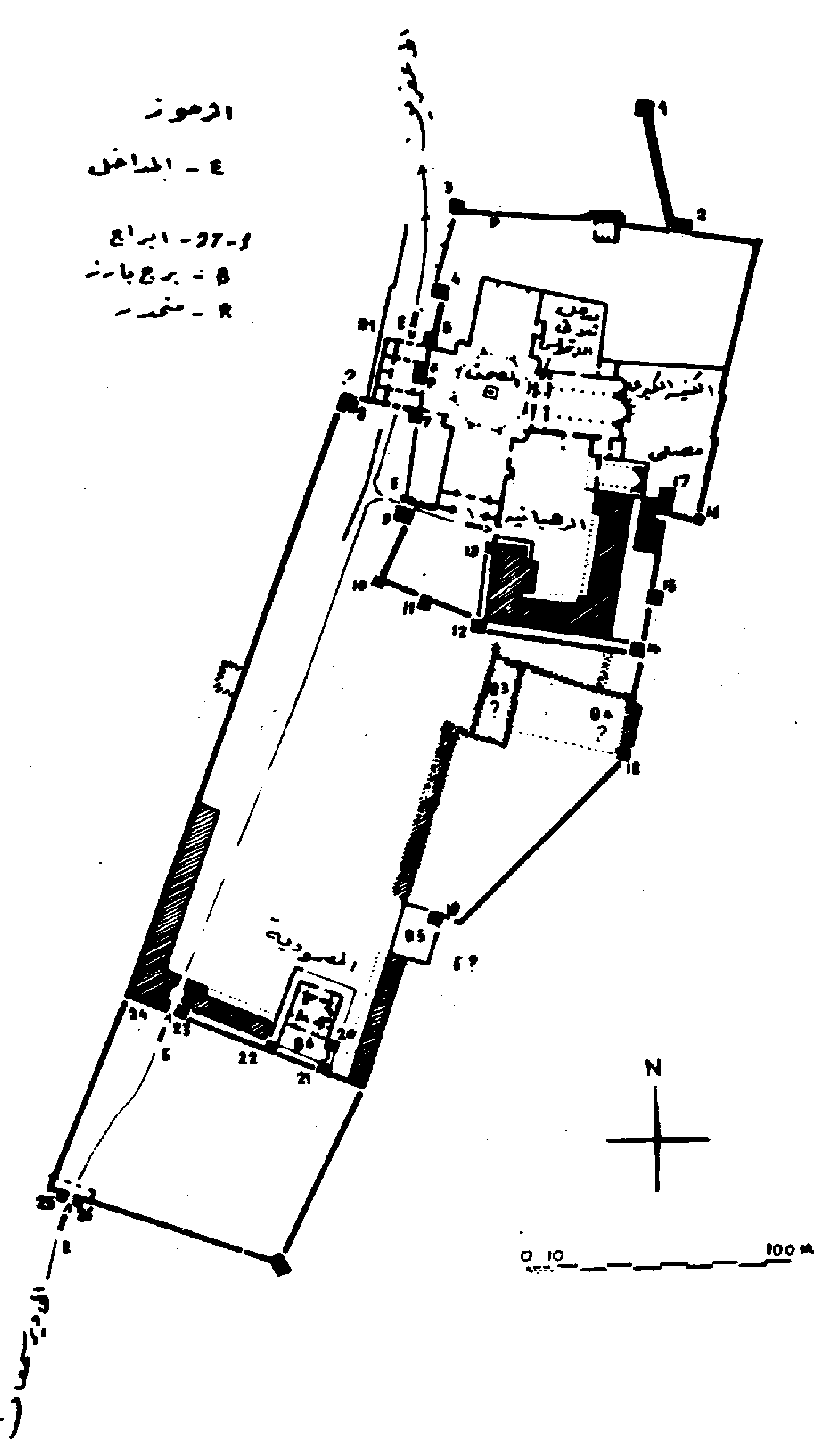
٨ — تقويم للكنيسة الكبرى (حسب كرنكر)



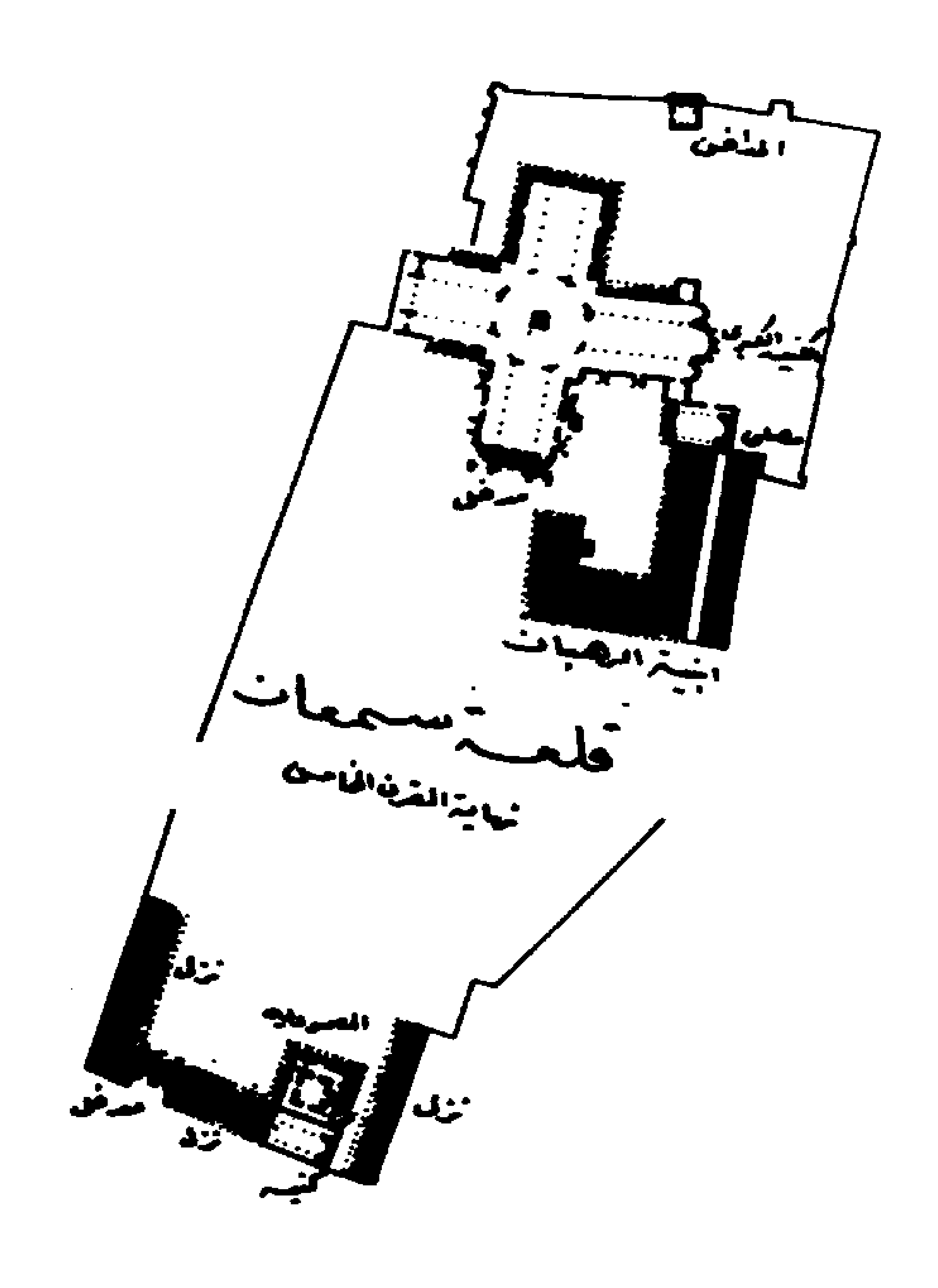
٩ ـ مسقط للجناح الشرقي من الكنيسة الكبرى كما وضعه كرنكر .



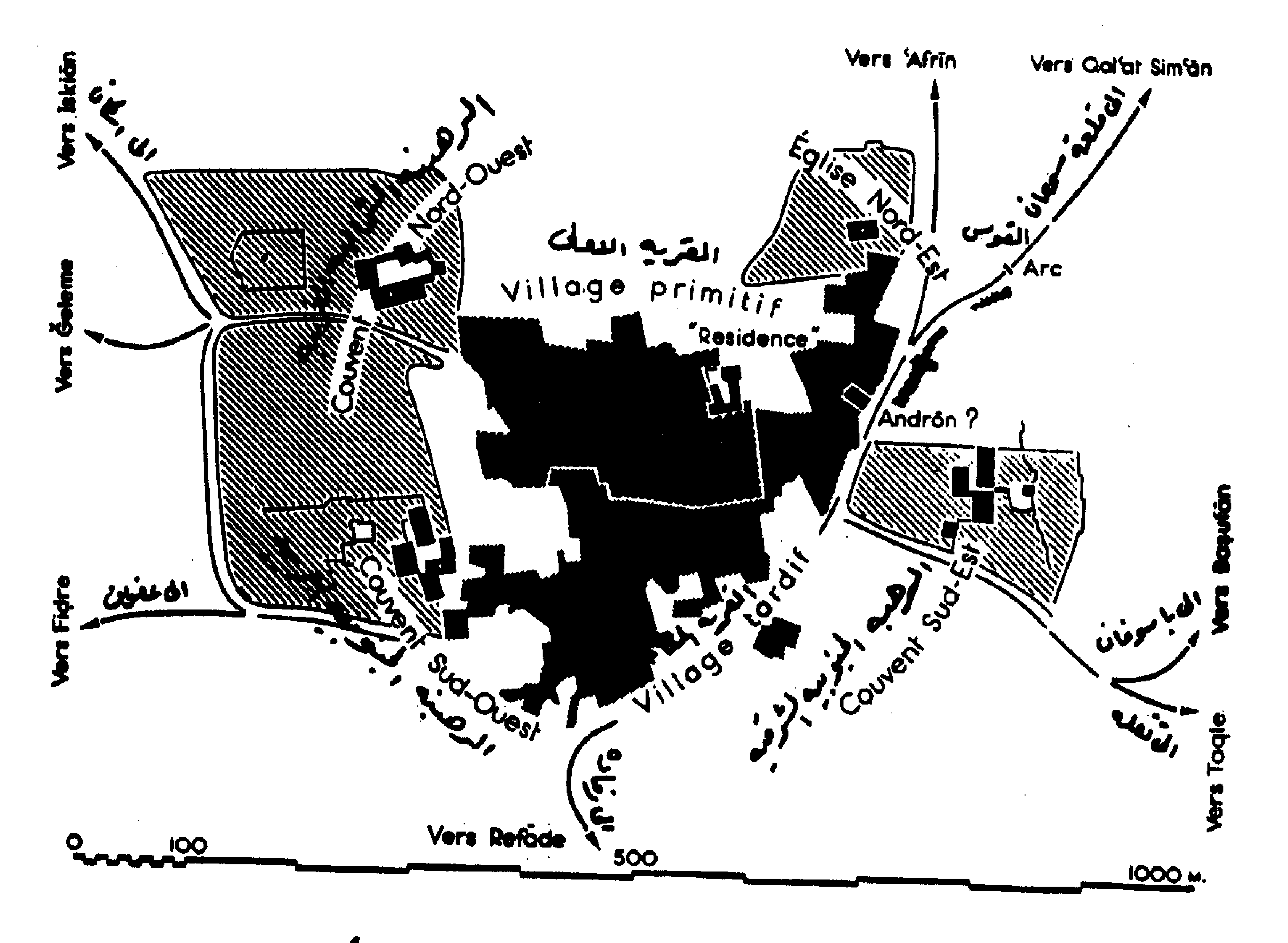
١٠ — مسقط الجناح الشرقي مع الشكل المثمن الذي يتوسطه مكان عمود سمعان .



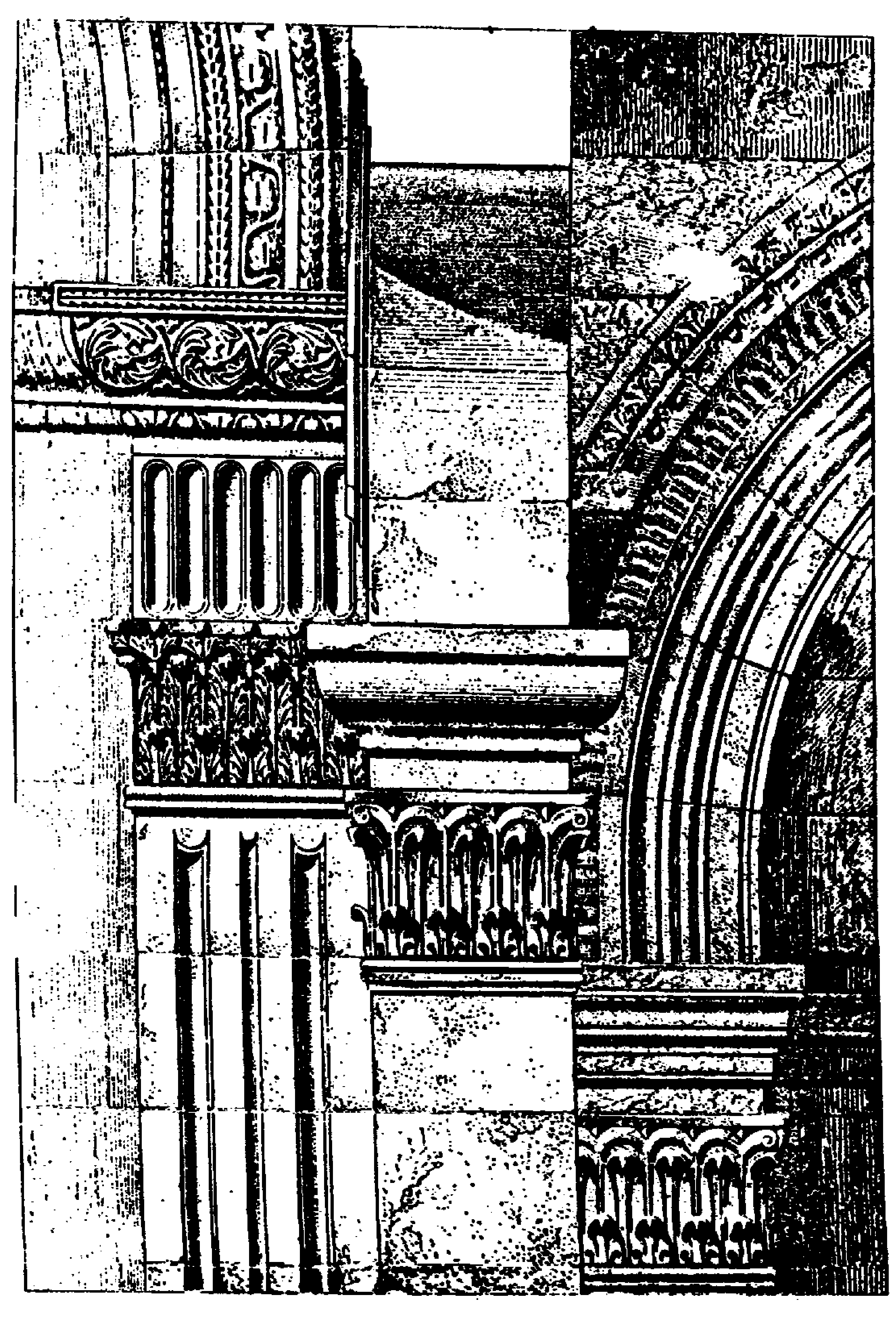
١١ ـ قلعة سمعان في القرن العاشر الميلادي



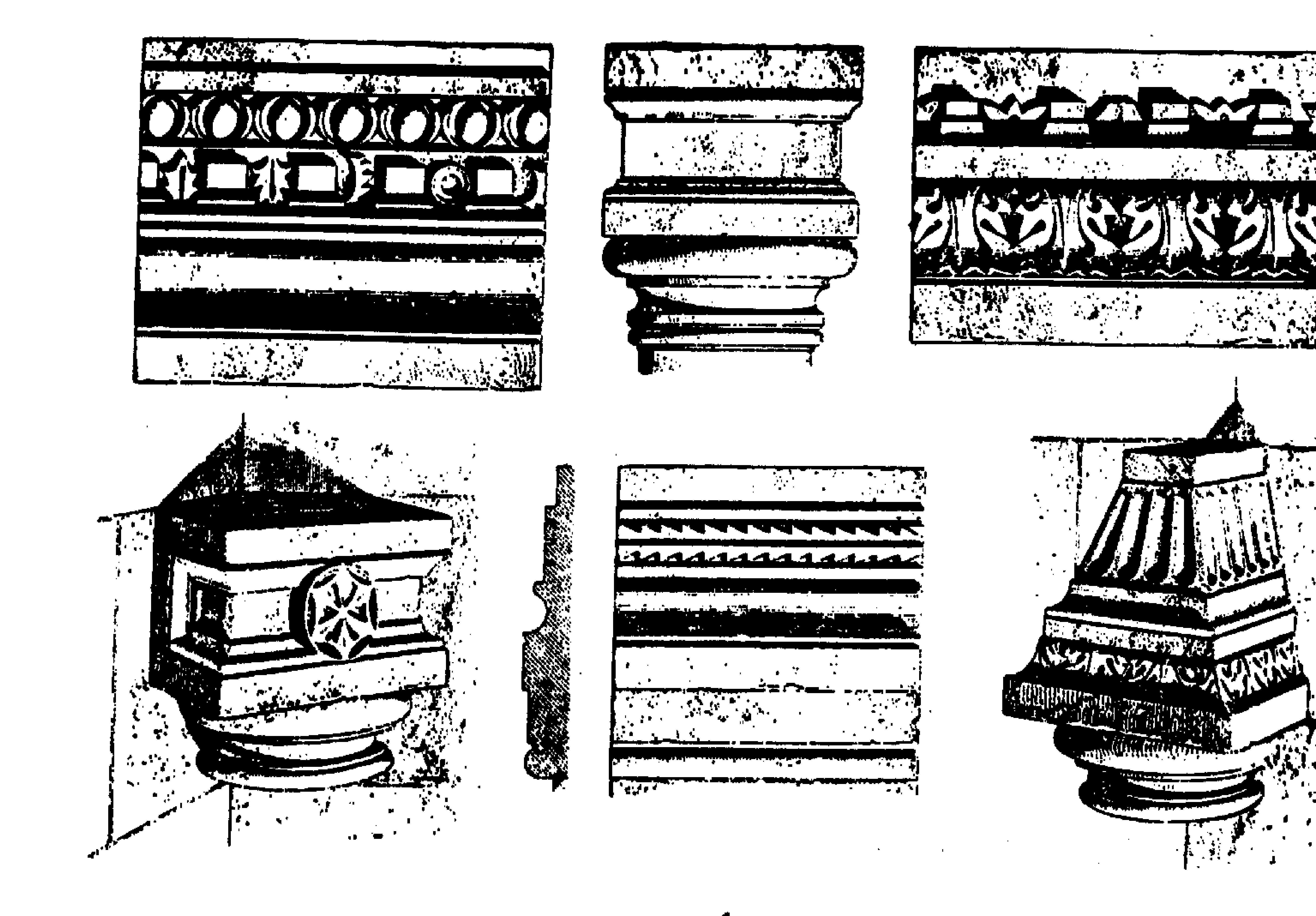
١٢ ــ رهبانية القديس سمعان العمودي .



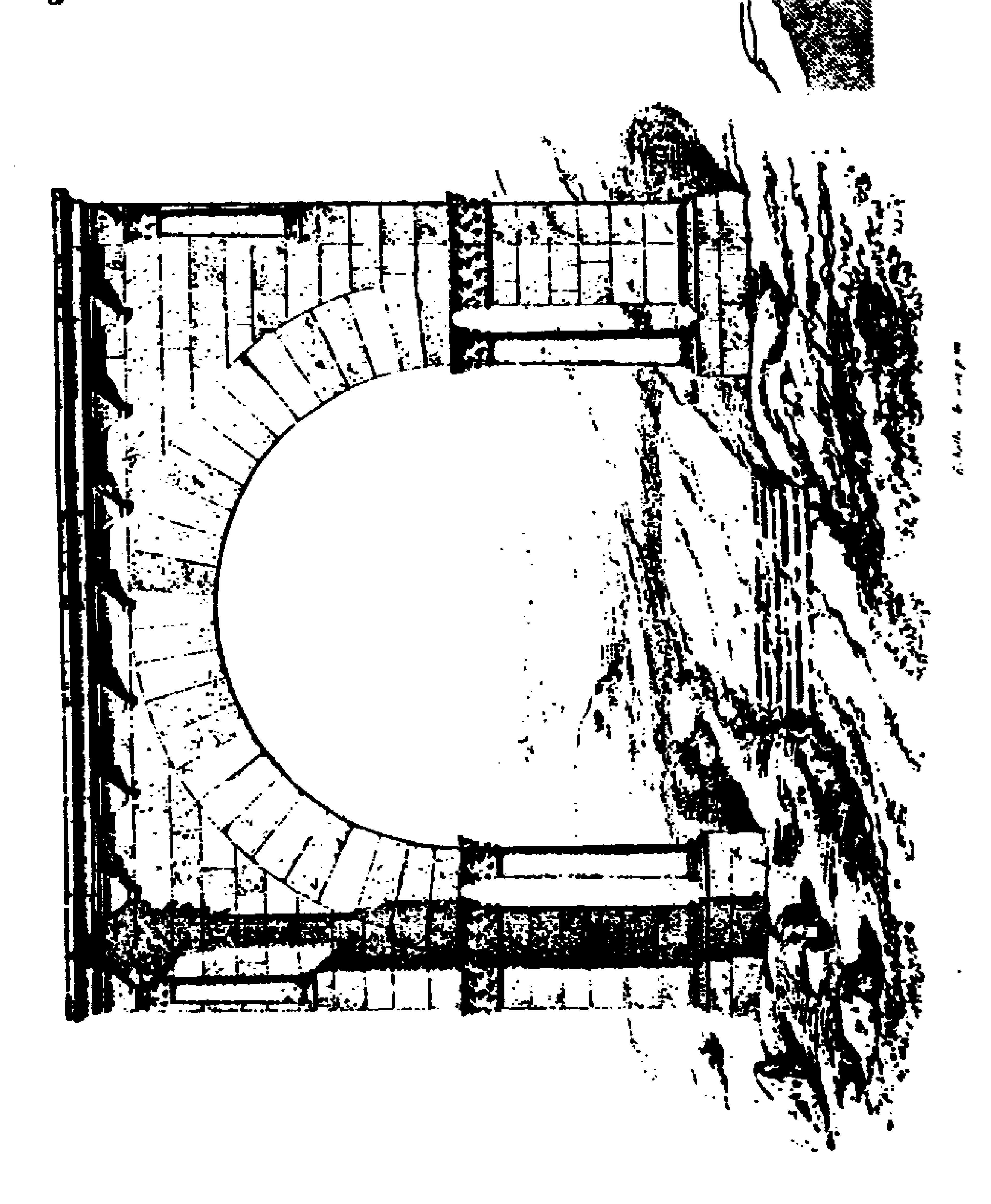
١٣ ــ مخطط لقرية دير سمعان إبان حياتها الأولى .



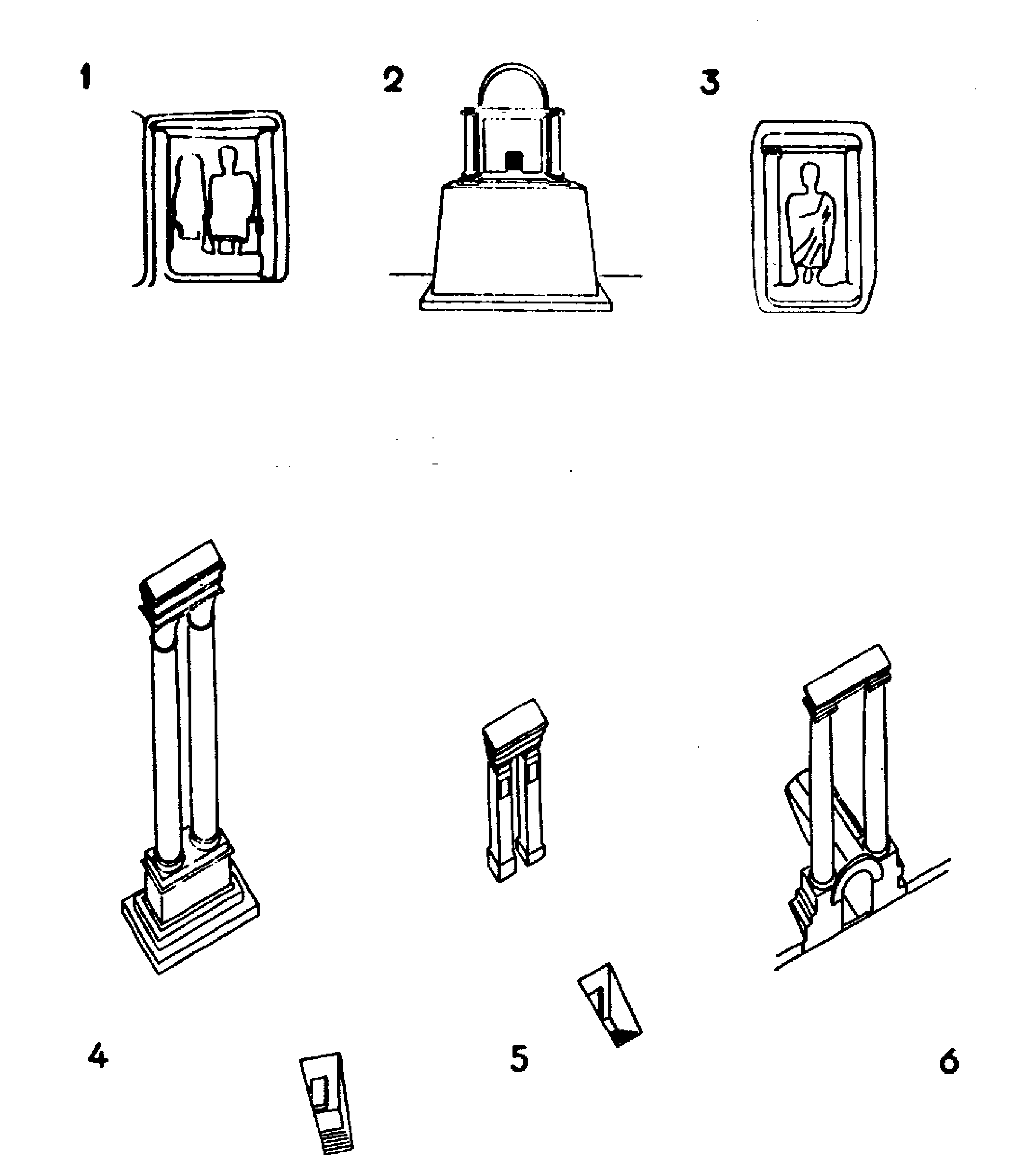
١٤ — حليات معمارية نباتية من قلعة سمعان .



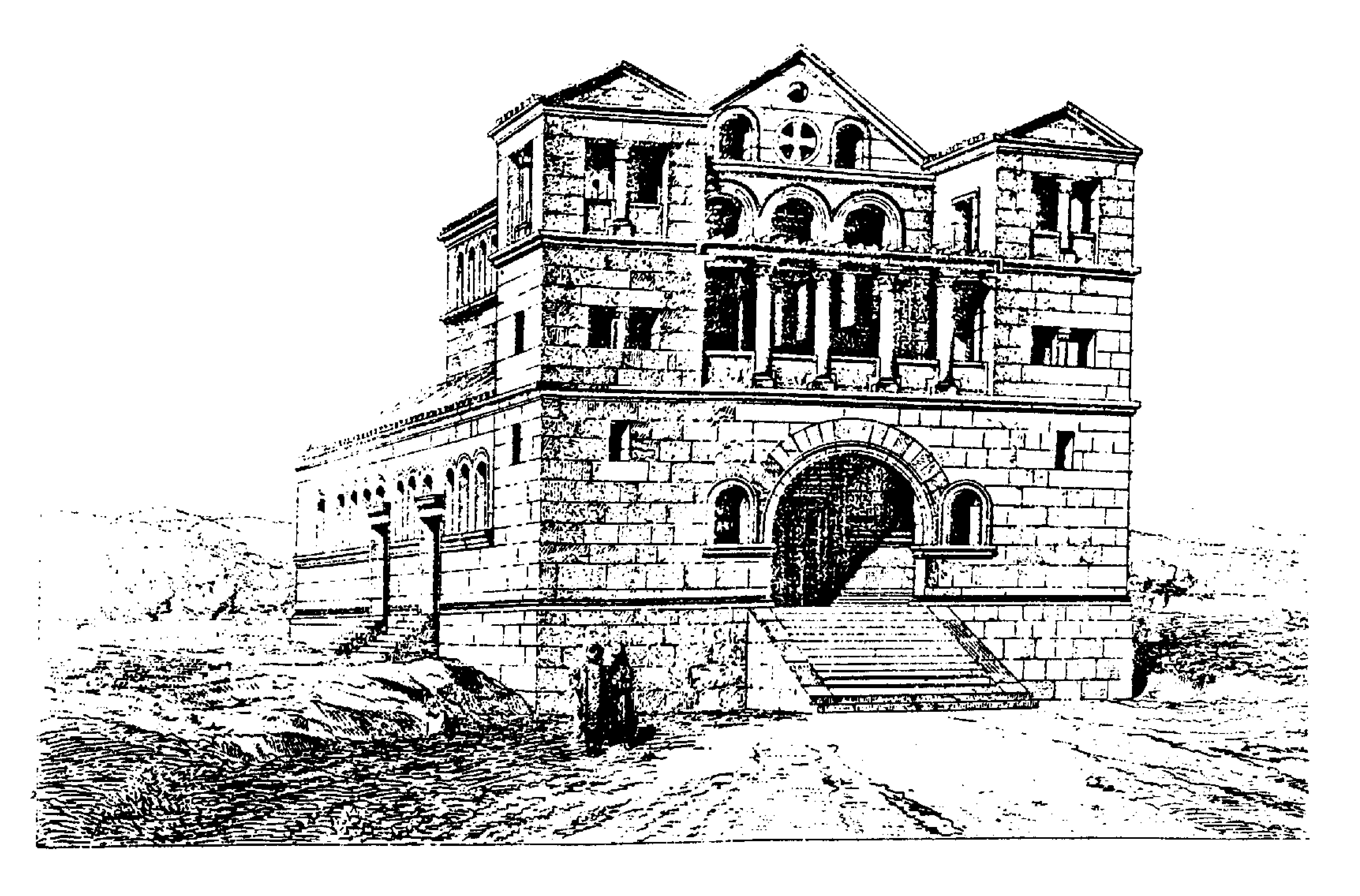
١٥ — حليات معمارية أخرى من قلعة سمعان .



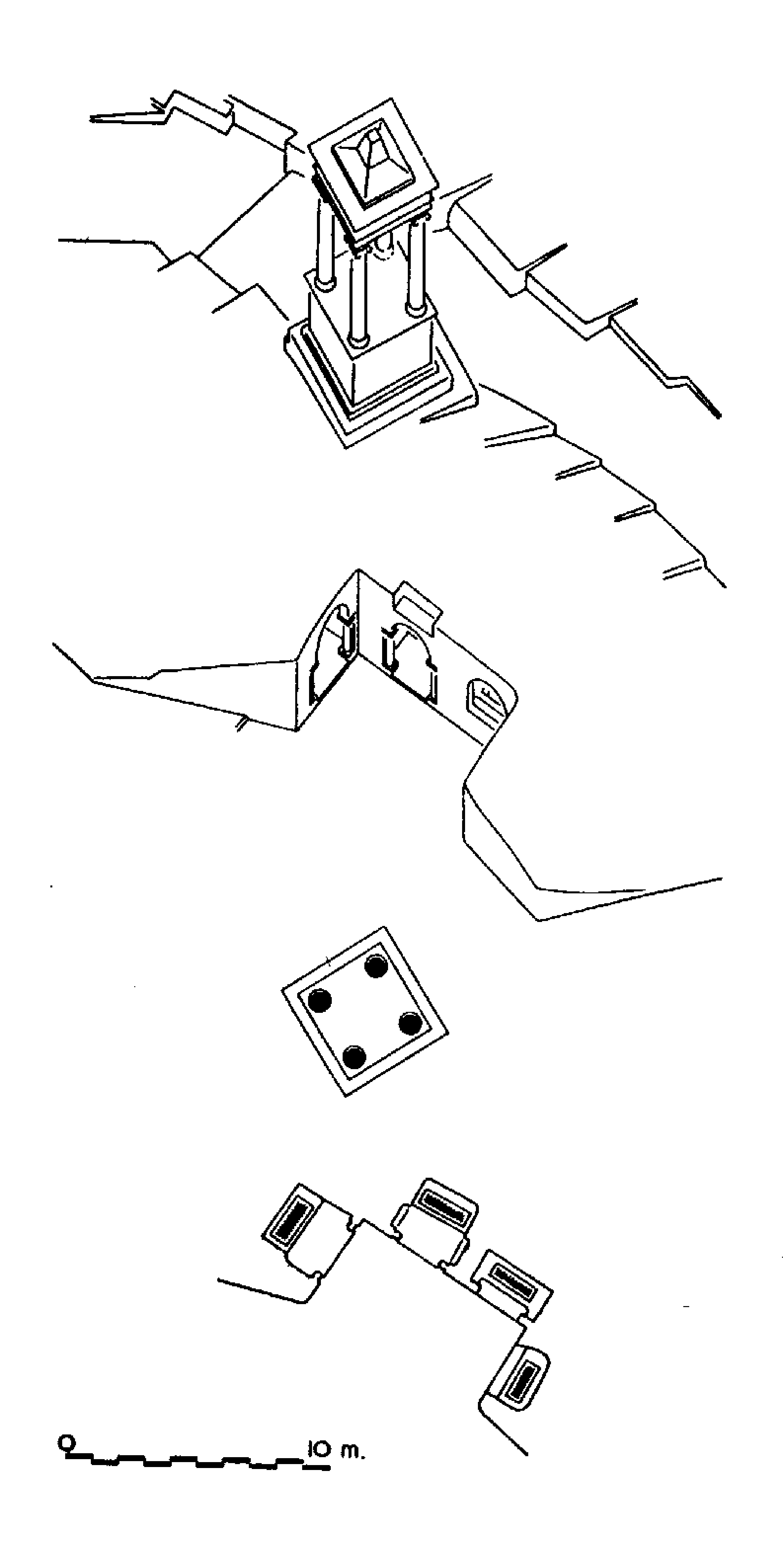
١٦ — تقويم للقوس المقام على الطريق المقدس الواصل بين دير سمعان وقلعة سمعان .



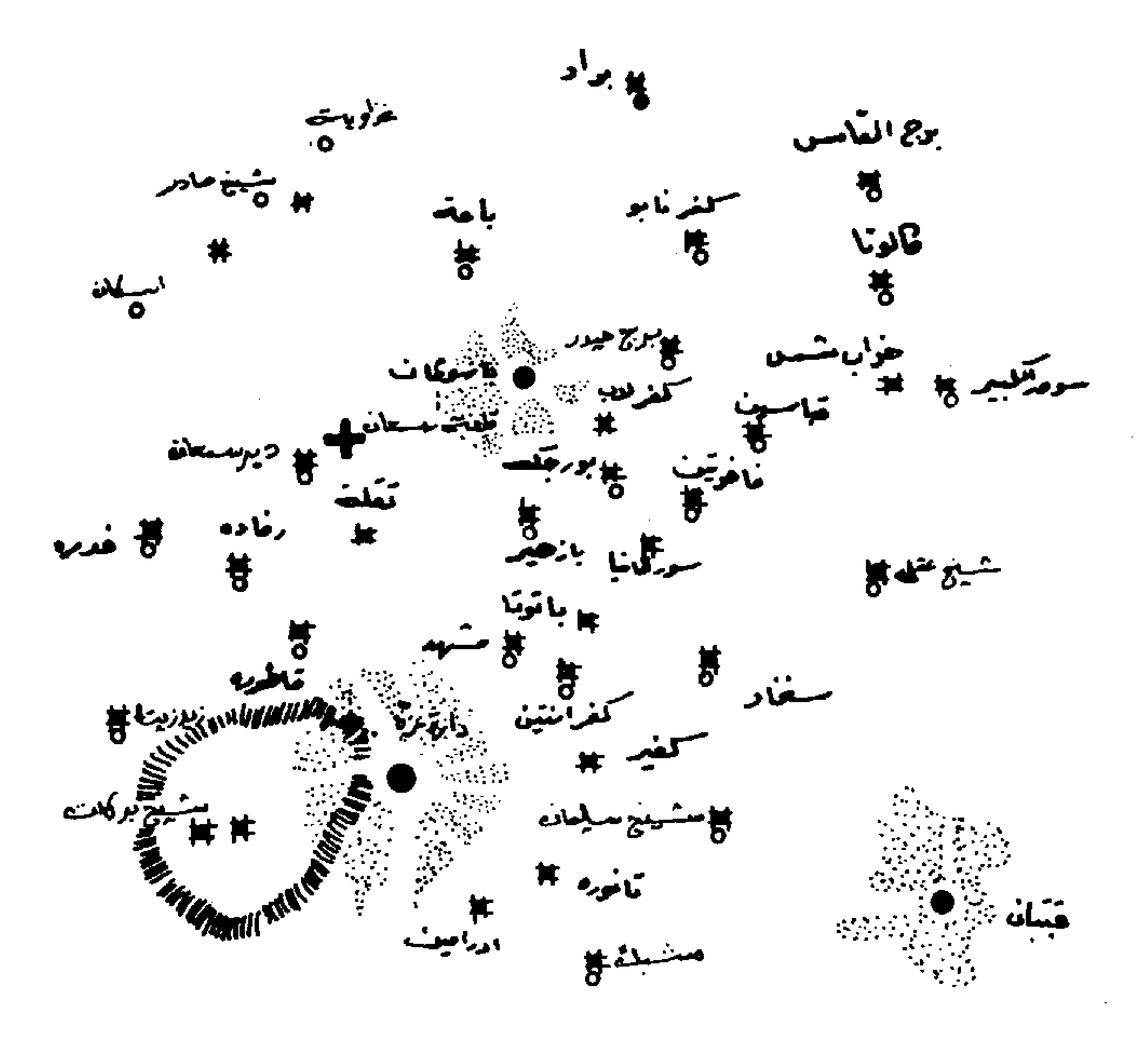
١٧ ـ نماذج من العمارة المدفنية في وادي القاطورة (القرنين الأول والثاني الميلاديين) ١ ، ٢ ، ٣ ، ونماذج من الأعمدة المدفنية في سهلي القاطورة والدانا ٤ ، ٥ ، ٦ .



١٨ — تقويم لدير ترمانين (دو فوجويه) .



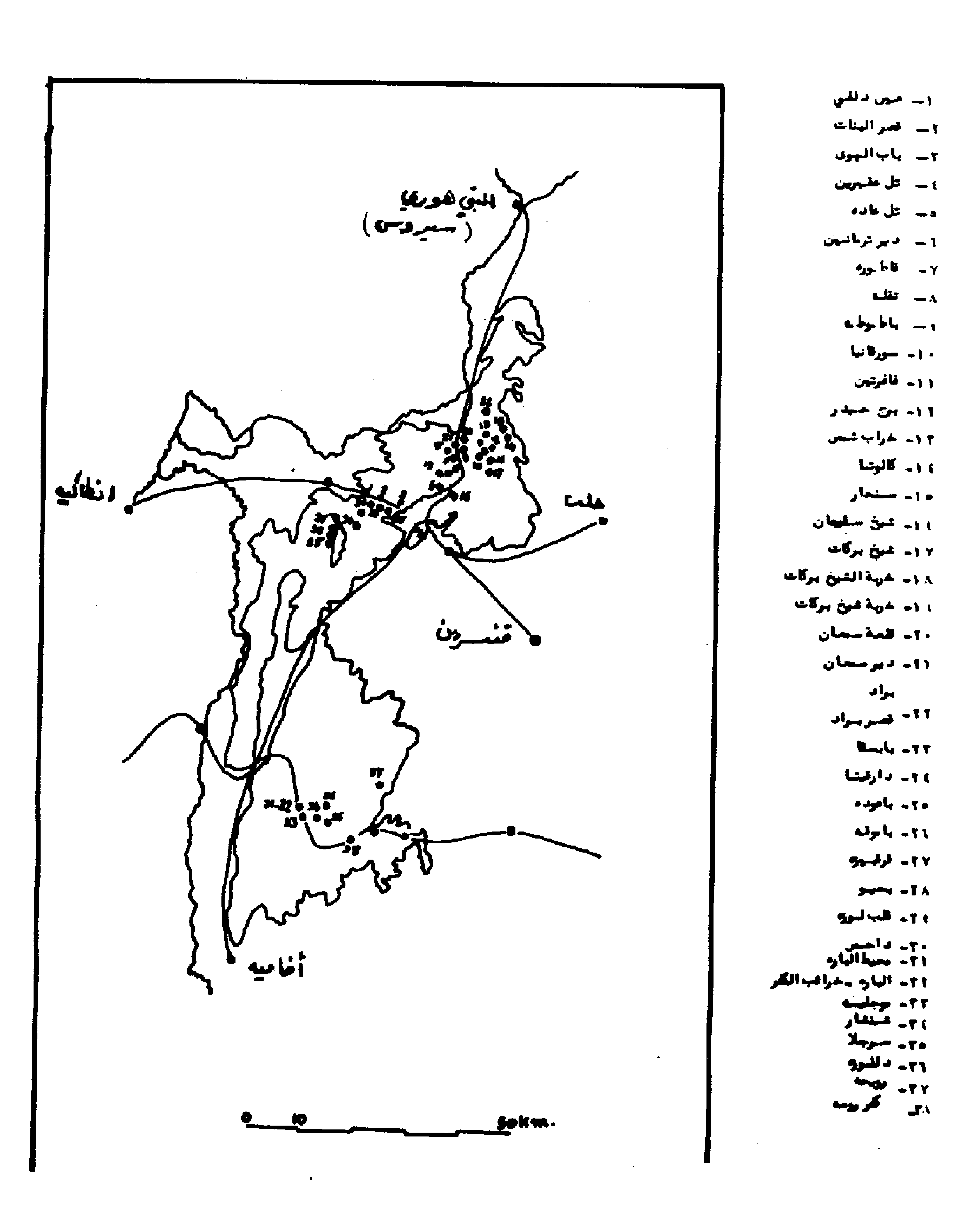
١٩ ــ مدافن في الدانا الشمالية (القرن الثاني الميلادي) .



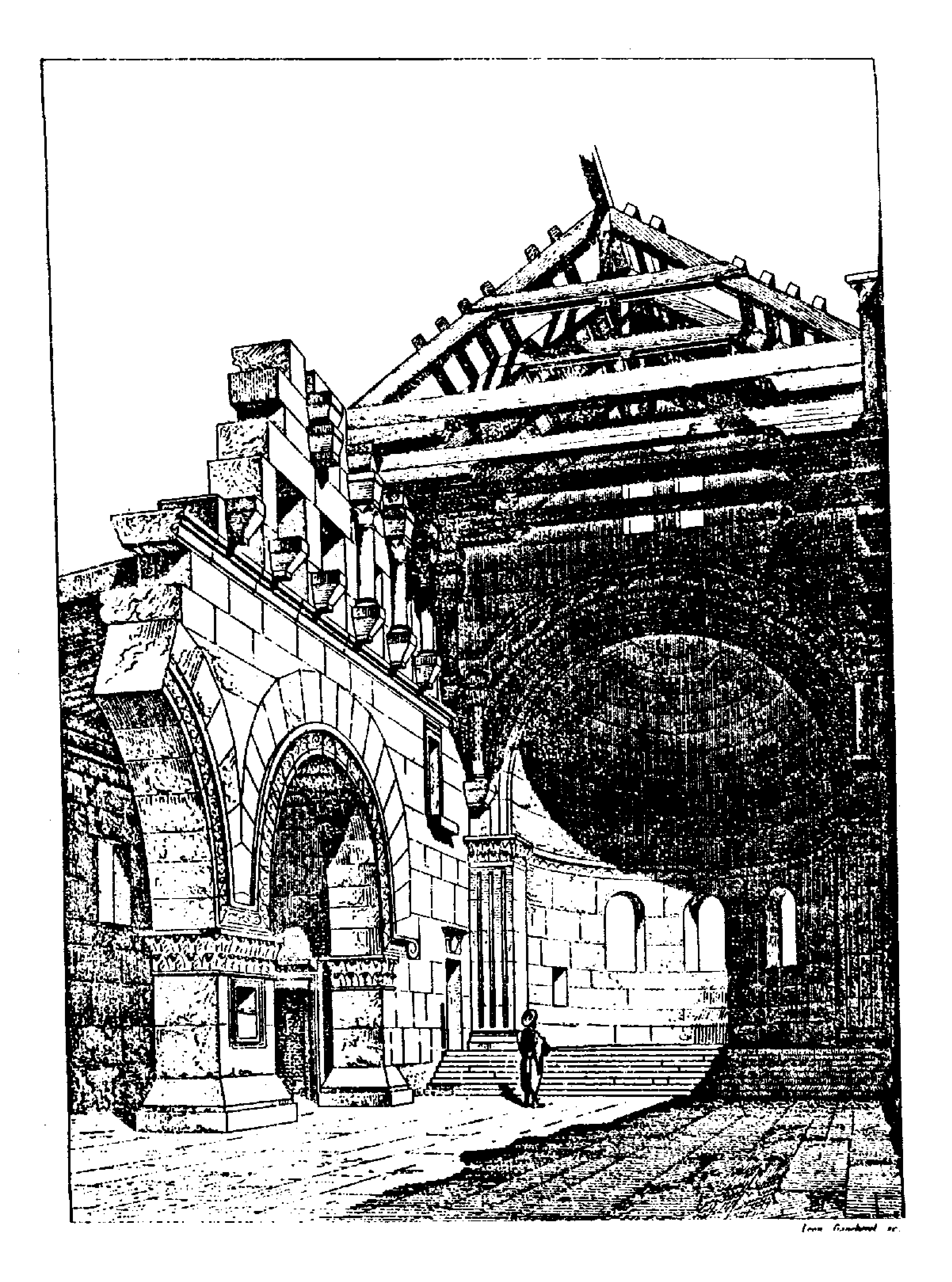


القرى الحالية
القرى القديمة المهجورة
القرى القديمة المسكونة
مناطق زراعة الزيتون والكرمة

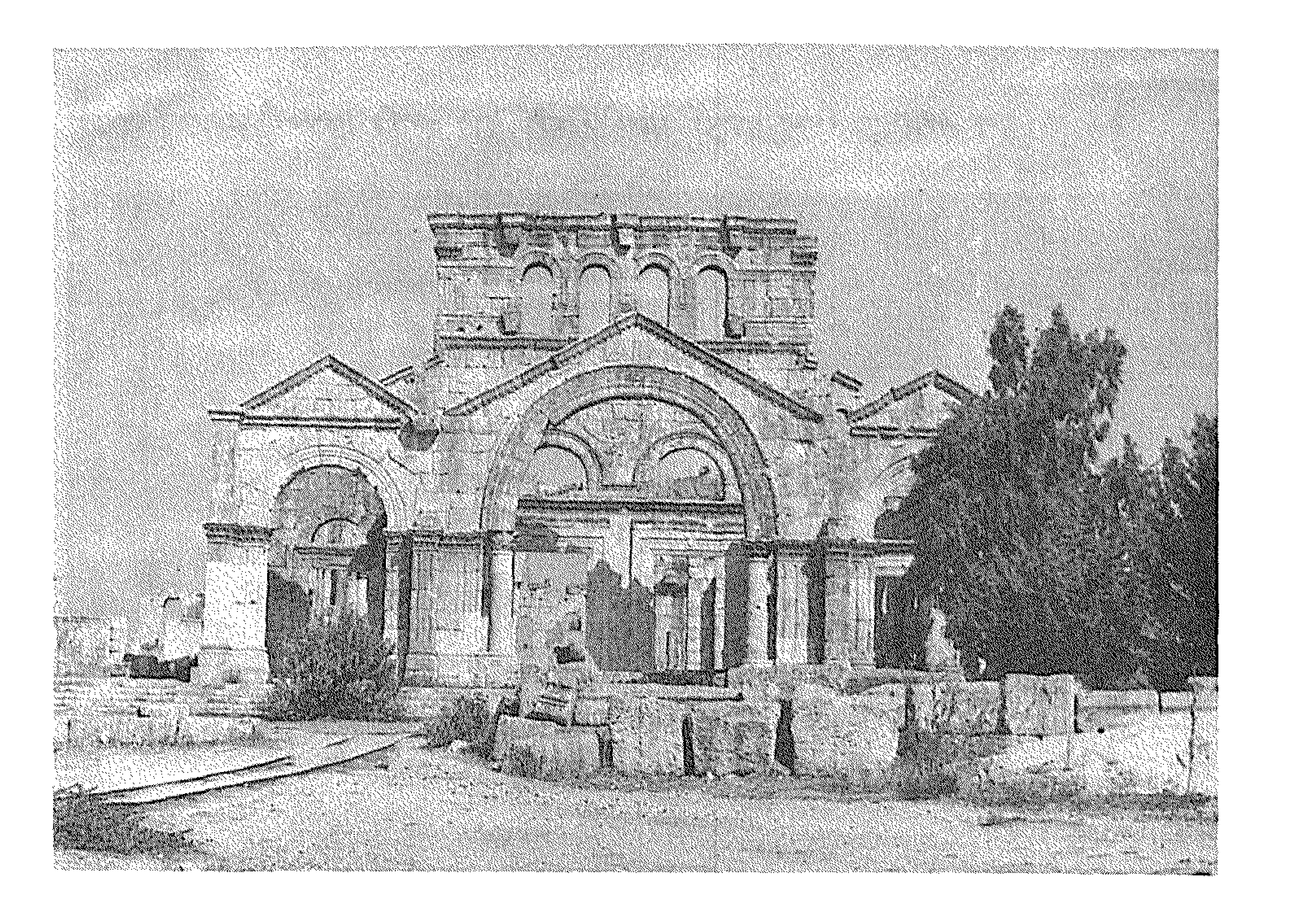
٢٠ — مصور يبين المواقع المحيطة بقلعة سمعان .



٢١ - مصور يبين المواقع الأثرية في الهضبة الكلسية .



٢٢ ـ كنيسة قلب لوزه من الداخل (دو فوجويه) .

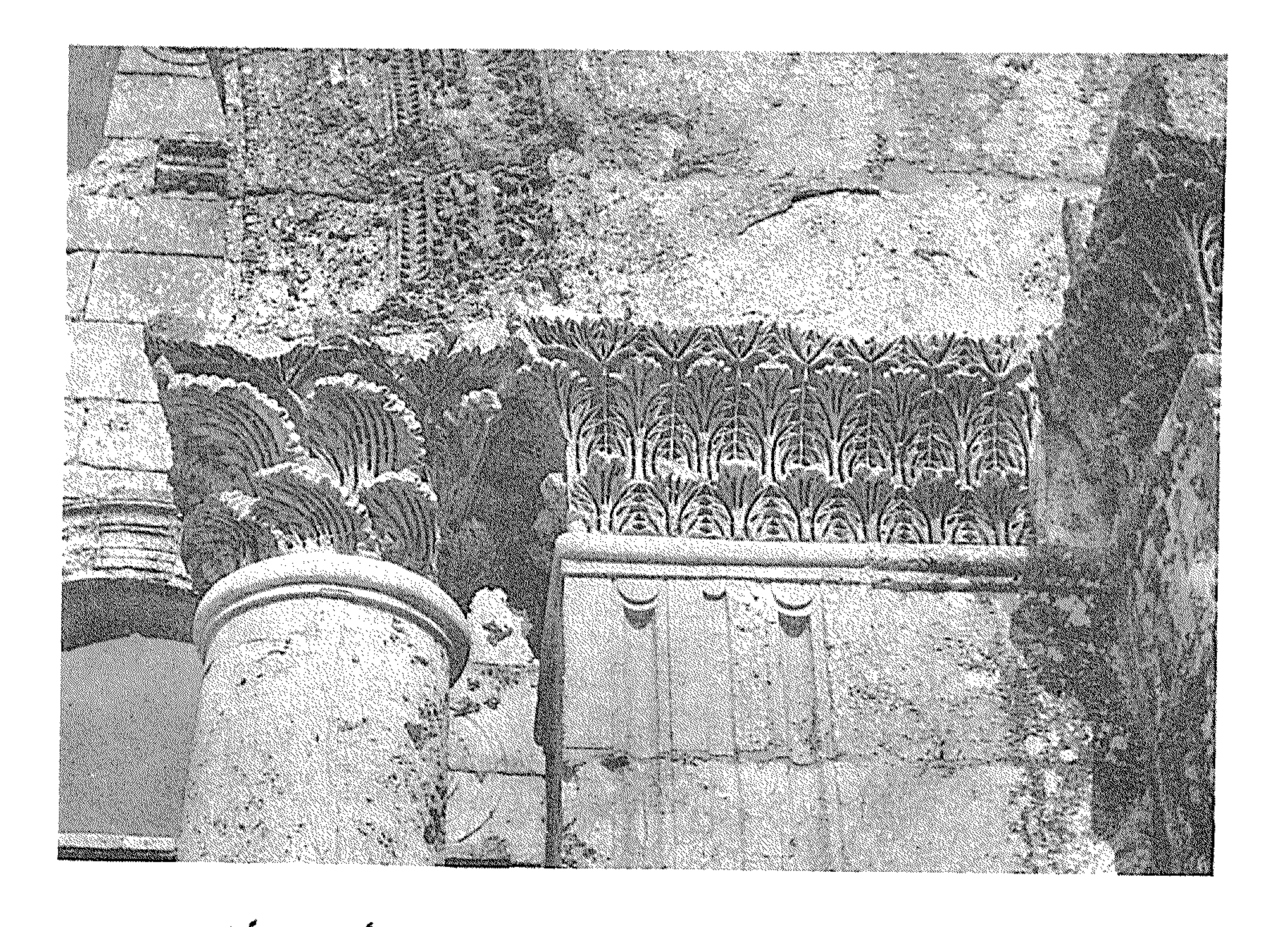


٢٣ ــ قلعة سمعان ــ الكنيسة الكبرى الواجهة التي يدخل منها الزائر .

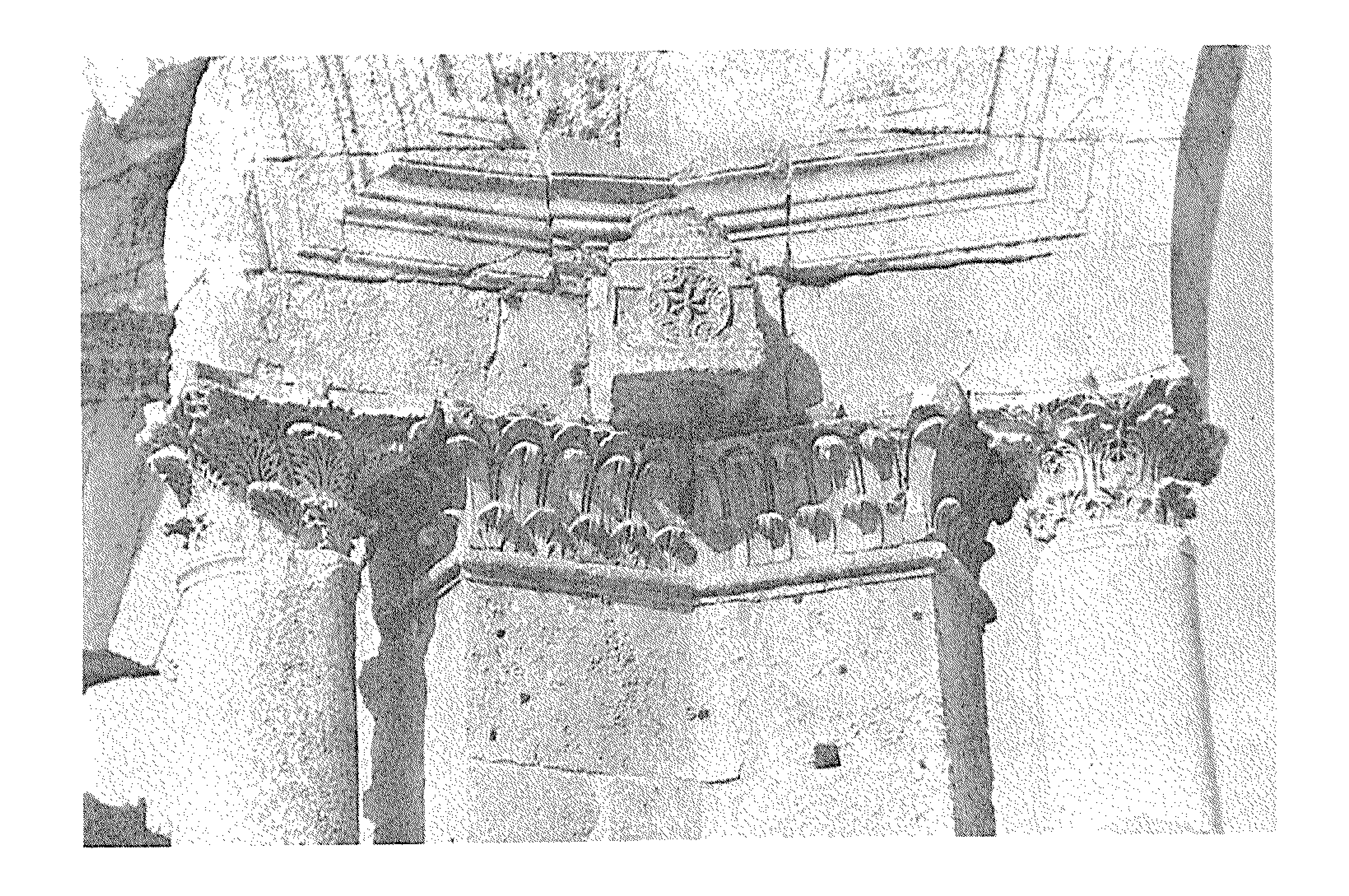
٢٤ — قلعة سمعان — وسط الشكل المثمن وتظهر بقايا عمود القدسي سمعان .



٢٥ — قلعة سمعان — الجناح الشرقي من الداخل .



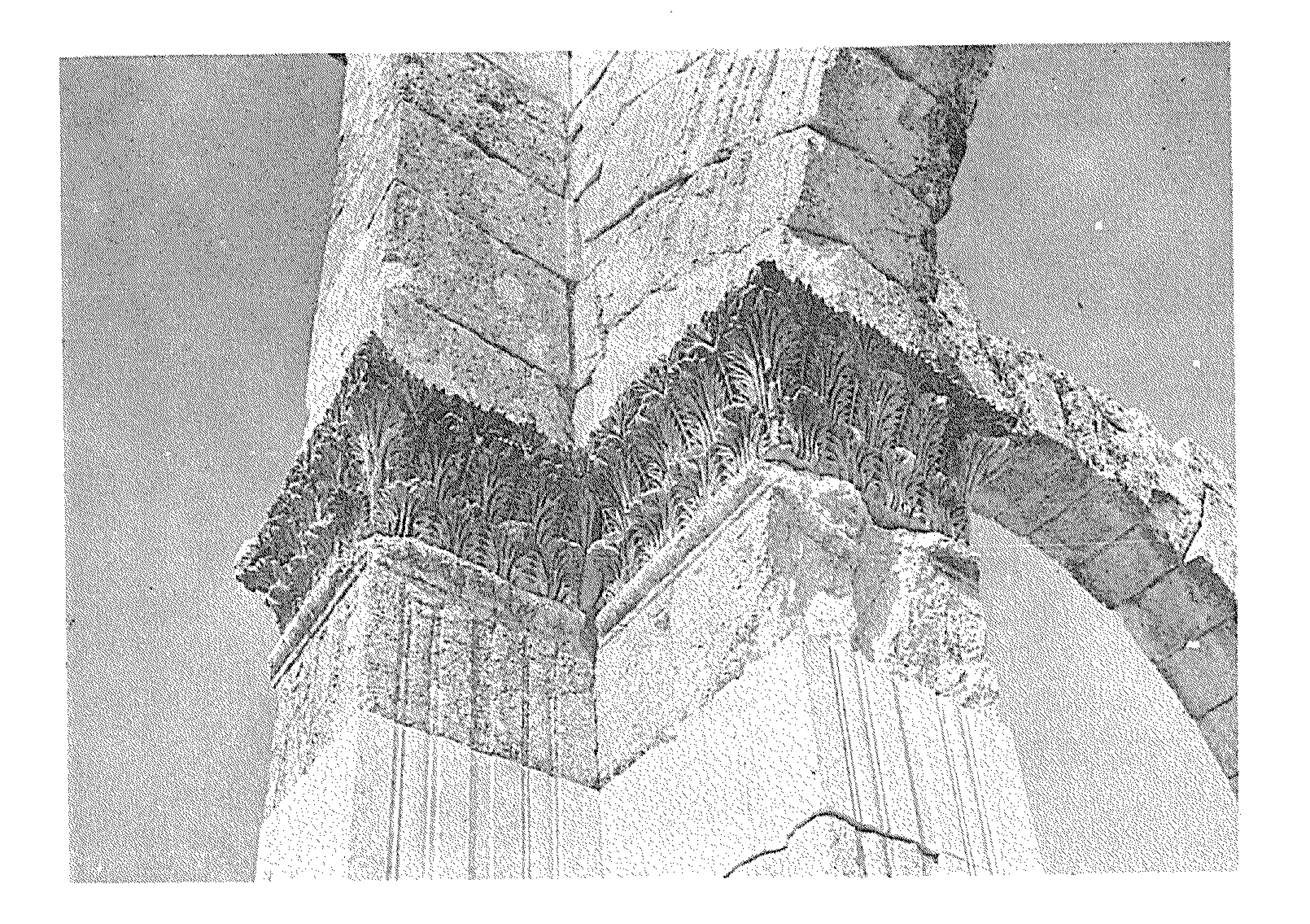
٢٦ — قلعة سمعان — تزيين شريطي وتاج عمود ، يظهر الأقنت مائلاً .



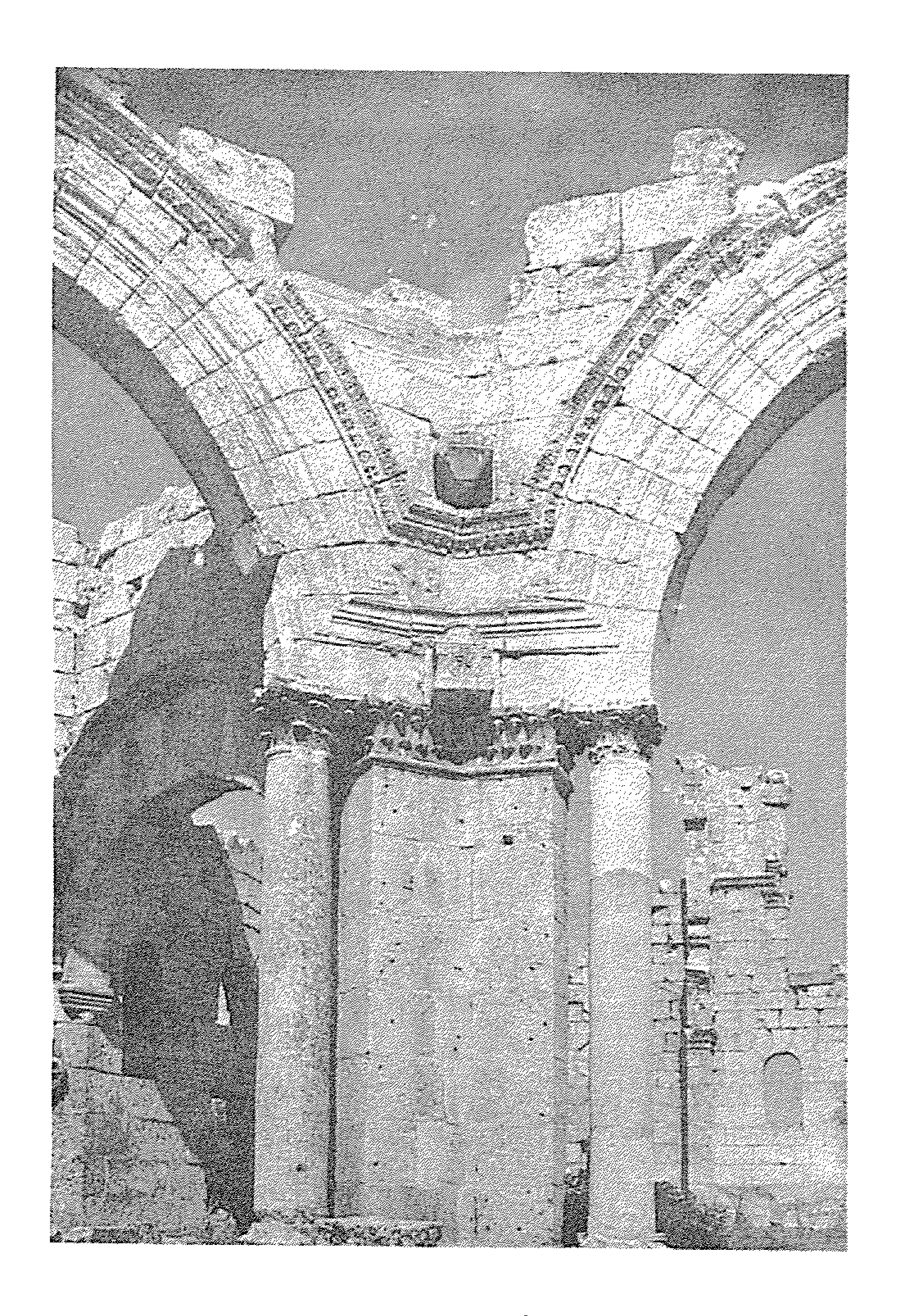
٢٧ — قلعة سمعان — تزيين شريطي وتاج عمود تظهر فيه تزيينات مختلفة .



٢٨ ــ قلعة سمعان ــ تفصيل لركيزة داخل المثمن .

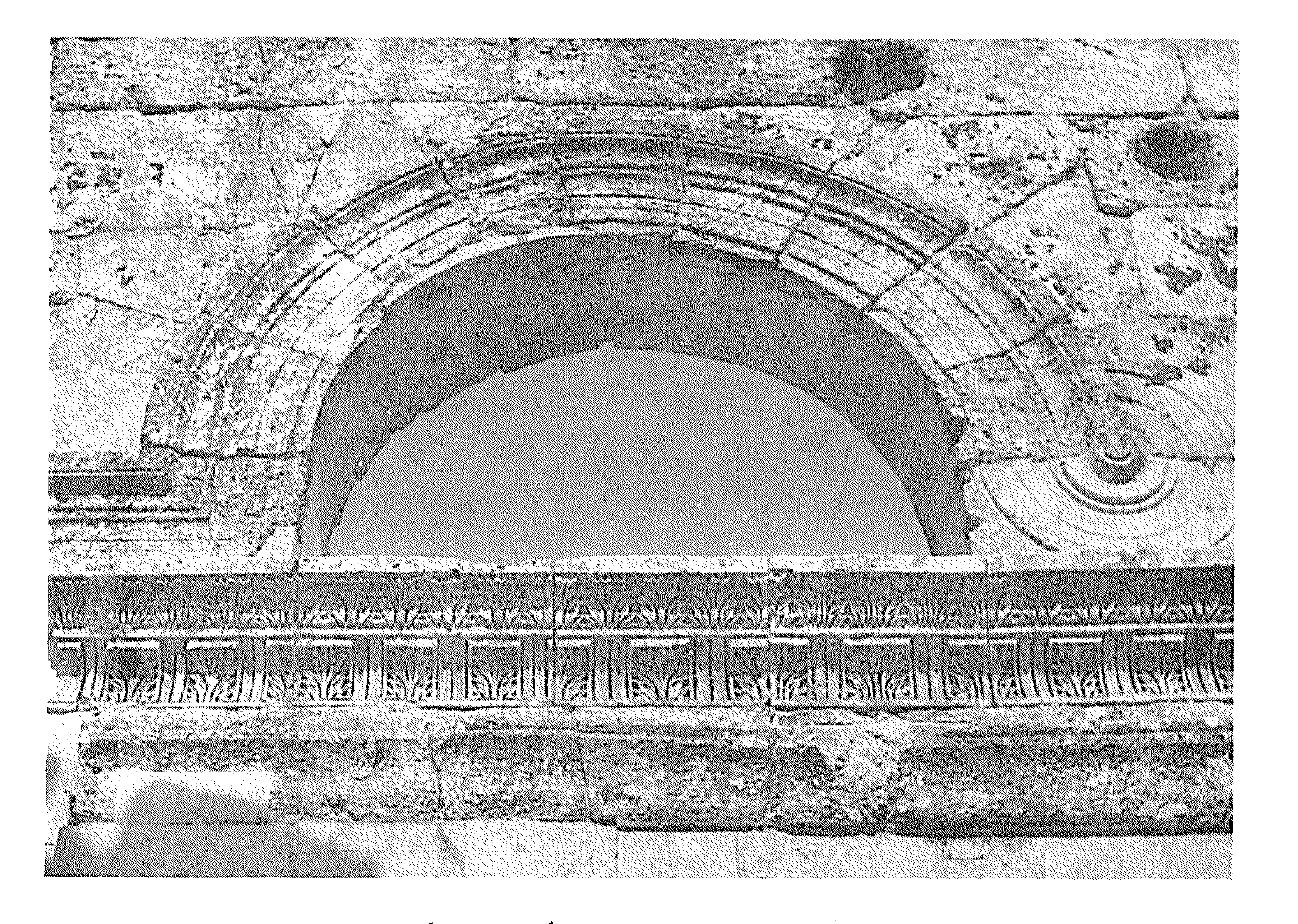


٢٩ — قلعة سمعان — تزيينات وترميمات حديثة .



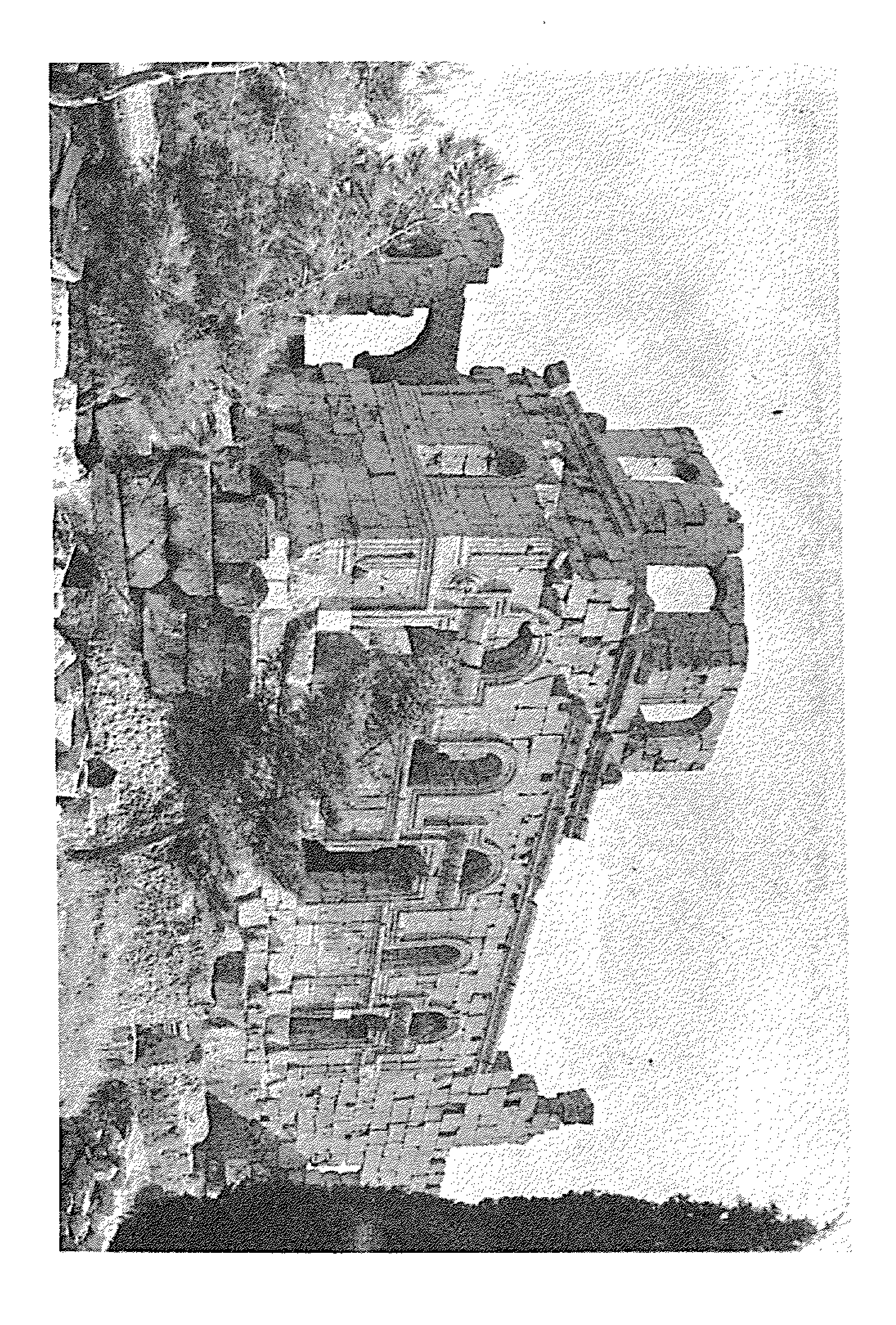
٣٠ ـ قلعة سمعان ـ أعمدة وتيجان وركائز داخل المثمن .

٣١ — قلعة سمعان — قاعدة عمود صغير معلقة داخل المثمن .

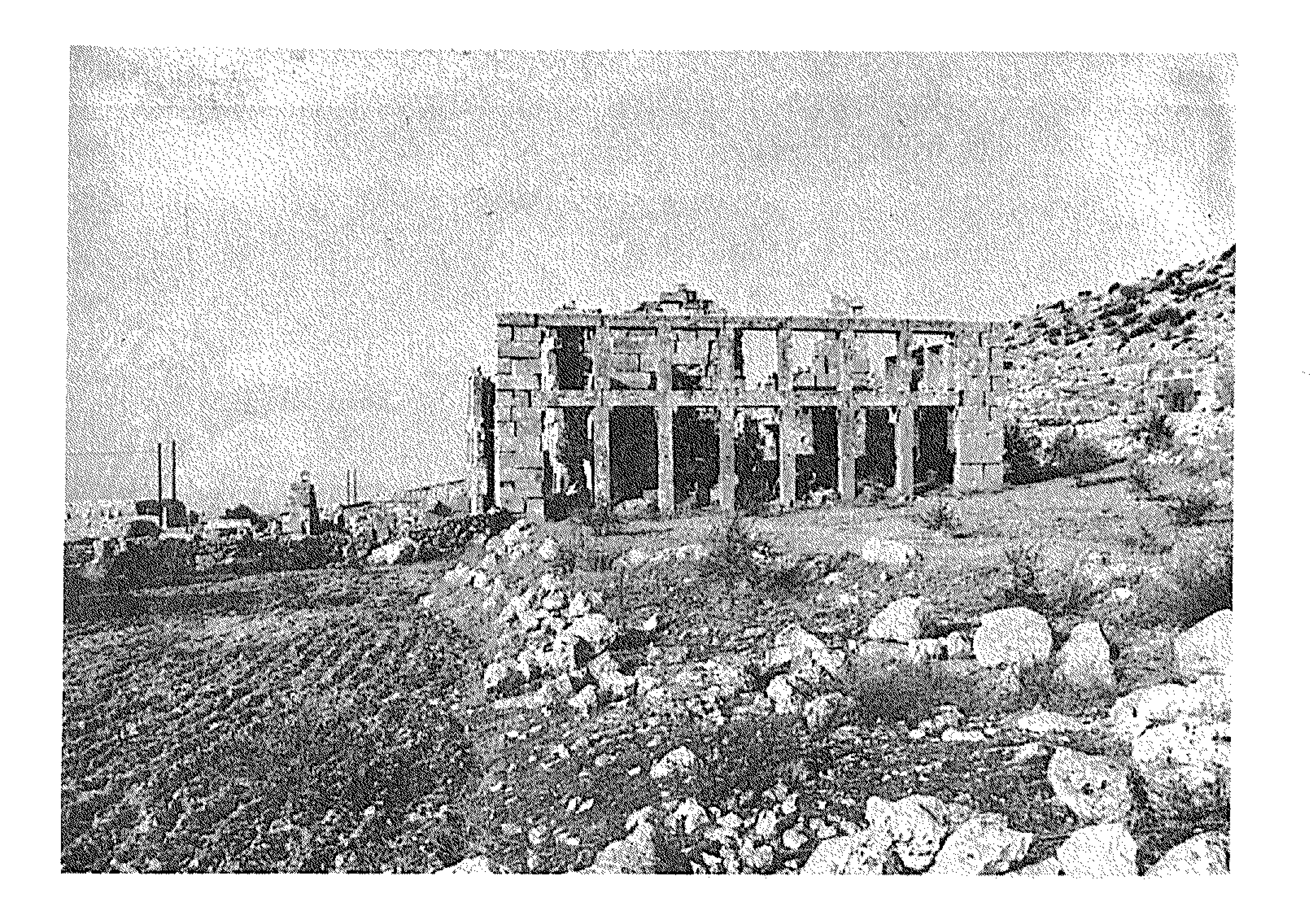


٣٢ — قلعة سمعان — زخارف الأقنت (الأكانت) .

٣٣ — قلعة سمعان — مدفن جماعي للرهبان والقديسين .



٣٤ — قلعة سمعان — العمودية .



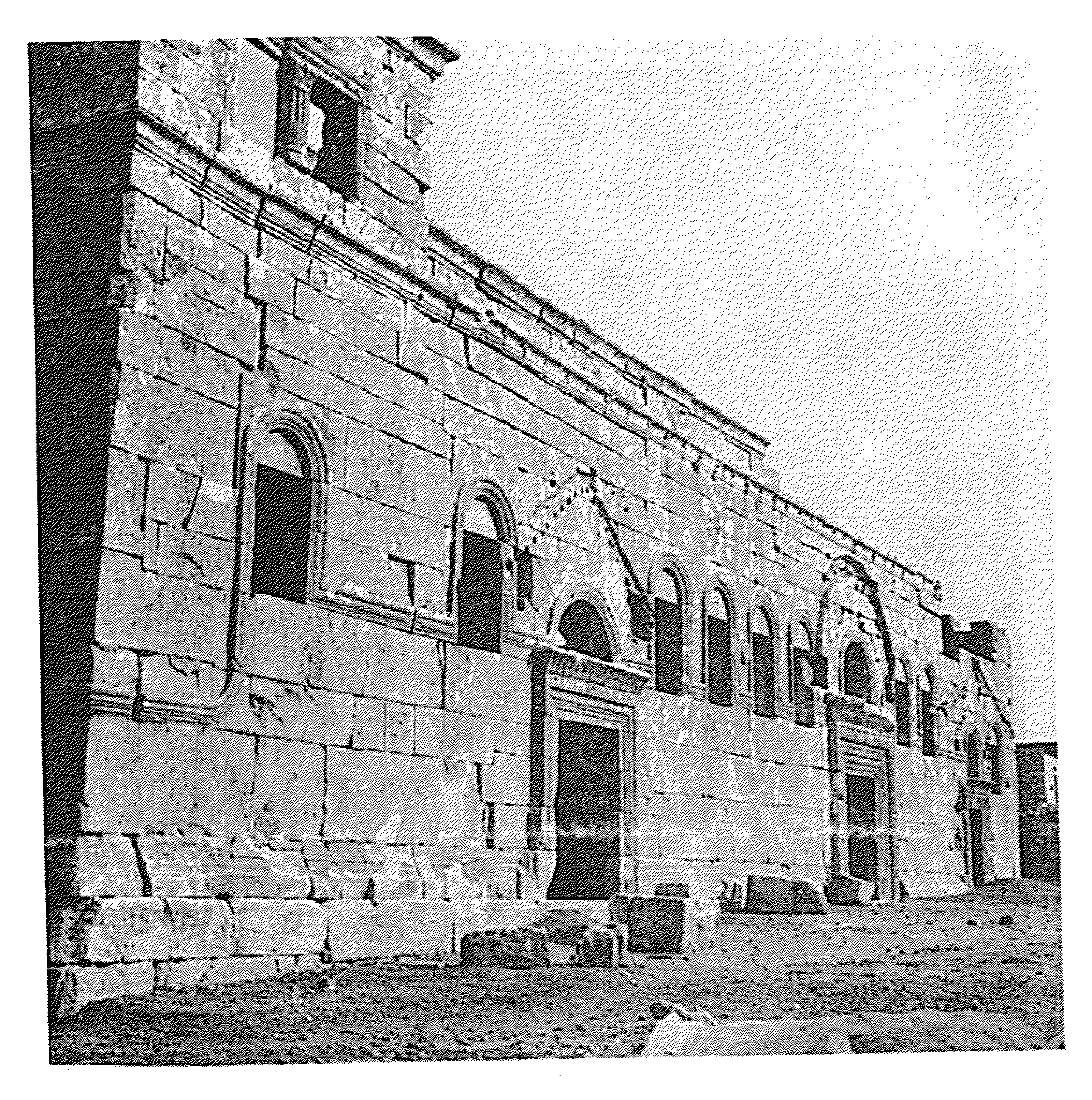
٣٥ ــ قلعة سمعان ــ خرائب نزل .



٣٦ — بقايا القوس المقام على الطريق المقدس .



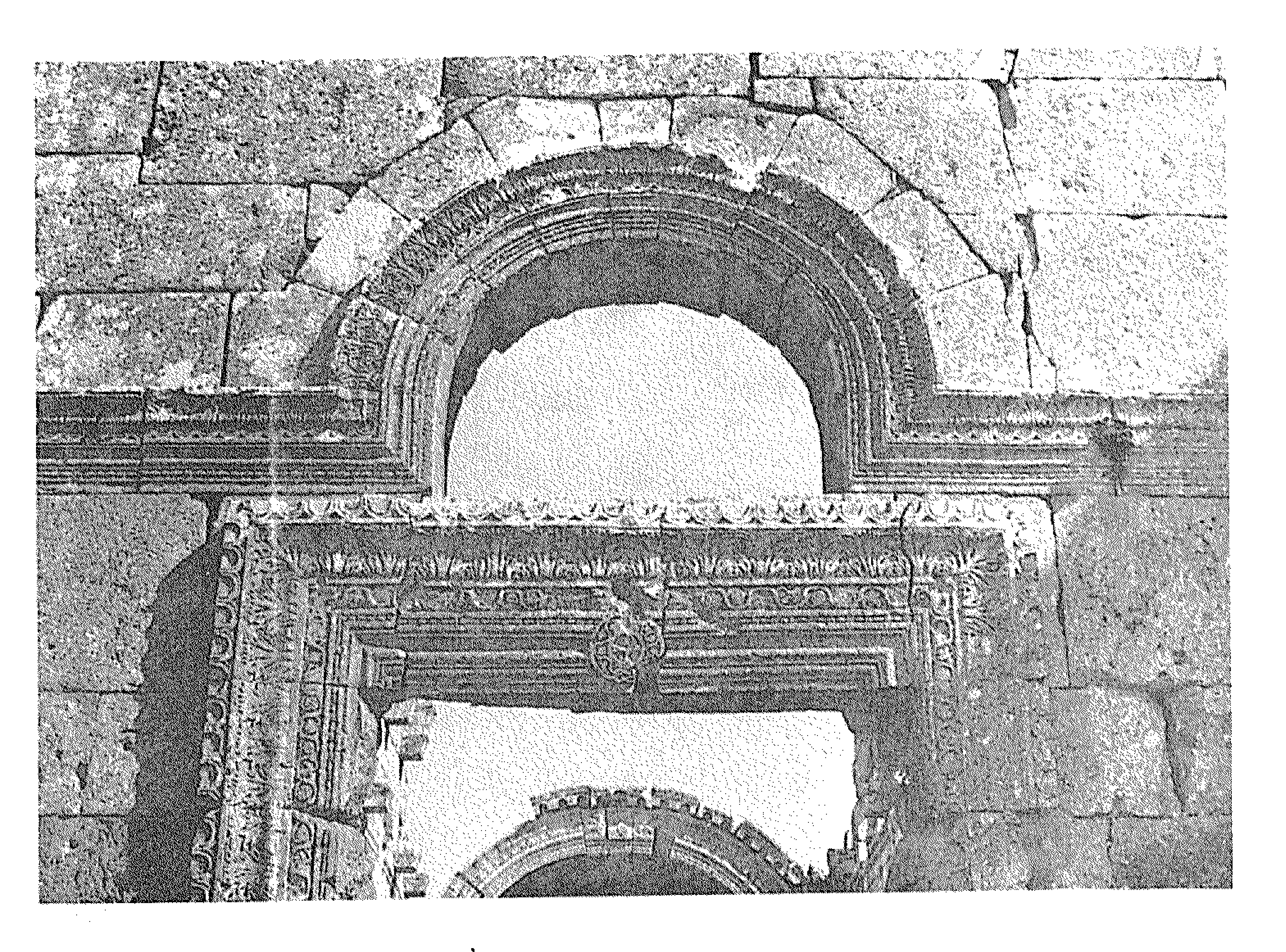
٣٧ ــ كنيسة قلب لوزه .



٣٨ — كنيسة قلب لوزه — واجهة .



٣٩ ـ كنيسة قلب لوزه ـ منظر عام داخلي للدعامات .



٤٠ — كنيسة قلب لوزه — تزيينات فوق أحد المداخل .

٤١ — عين دارا — منظر عام للتل .

المحتوى

